الباب الأول

الفصل الأول : القينة :

اشتقاقها ، أسماؤها ، الرقيق وظهور

القيان ، مواطن القيان ، طبقاتهن

الفصل الثانى : قيان مسميات :

أخبارهن وسيرهن

الفصل الثالث : غناء القيان :

طبيعته الفنية ، الأثر الأجنبى فيه ، منزلته

بين أنواع الغناء الأخرى فى الجاهلية .

الفصل الأول

القينة

اشتقاقها

لعلّ لفظة القينة من الألفاظ القليلة فى اللغة العربيّة التى نستطيع أن نتتبع اشتقاقها ونقتفى آثارها فى اللغة العربيّة وفيما اصطُلح على تسميتها باللغات السامية المختلفة ، ثمّ فى اللغات الهندوأوربية كاليونانيّة ومن بعدها اللاتينية .

وقد استوحيتُ فى تتبّعى هذه المادة اللغويّة : التشابهَ فى اللفظ ، والتقارب فى المعنى ، والتدرّج فى الدلالة — معًا ، وأنا أرجو لذلك أن تكون تلك المعالم والصُّوَى التى ننصبها فى طريق بحثنا صادقةَ الدلالة ، تقودنا فى يُسْر وأمن إلى يقين نطمئنّ إليه .

وأيًّا كان الأمر فإنّنا واجدون فى الشعر الجاهلى ، وفى معاجم اللغة ، وفى النصوص الأدبيّة والتاريخيّة التى عرضت لتلك الحقبة النائية من تاريخنا العربى ، مادةً غزيرةً تستطيع — على ما فيها من اضطراب لا يخلو أحيانًا من تناقض — أن تستثيرنا وفرتُها ، ويستهوينا خصبُها ؛ فنعقد منها حلقةً محكمةَ التسلسل ، متينة البناء ، ينعطف آخرها على أوّلها انعطافًا متساوقًا ، يتدرّج مع ما ذهب إليه العلماء فى أبحاثهم عن نشأة الألفاظ وحياتها . . . فيُخَيَّلُ لنا كلُّ ذلك أنّنا نسير فى مطمئنٍّ من الأرض قد وَطَّأ لنا مَتْنَهُ فى انسياب يُغْرى بالمُضىّ فيه ، مطمئنين إلى صلابة أرضه وسلامة مرماه . ونحن نرجو ألاّ يكون هذا السيرُ ، الظاهرُ أمْنُهُ ، خَبْطًا فى الظلام واعتسافًا للطريق .

* * *

وبعد :

فأحسب أن لا بدّ لنا من الرجوع ، فى معاجم اللغة ، إلى ثلاث مواد ، (ق ن ن) و (ق ى ن) و (ق ن ا) سواء أكانت الألف الأخيرة واواً أم ياء على اختلاف الرأى . وسنرى حينذاك أن العلاقة بين هذه المواد اللغويّة ليست تشابهًا فى اللفظ حسبُ ، وإنّما هى علاقة وثيقة تجعل من هذه الألفاظ أسرة واحدة تجمع أفرادها رحمٌ قريبة ، فتردها فى أصلها إلى جدٍّ واحد تفرّعت عنه وتسلسلت منه ، حتى توالدت هذه الفصائل الكثيرة من ألفاظ تباعد ما بينها فضربت فى أنحاء متفرّقة ، واندسّ بينها كثير من المُحْدَث من المعانى المجازية . حتى كاد يختلط علينا الأمر فنحسب كلّ مادة من هذه المواد ، بما ينطوى تحتها من وفرة لفظيّة ، قائمة بنفسها مستقلّة عن سواها ، لولا هذا الوشاح من التشابه اللفظى الذى يشملها جميعها ، ولولا مسحة ضئيلة من تشابه فى المعنى يُطيف ببعضها ، ثمّ تتشعّب عليه المسالك ، وتتكاثر عليه المُحْدَثات ولا سيما المجاز ، فتتيه عنّا آثاره ، ولا يبقى إلاّ التشابه اللفظى.

وأغلب ظنى أن جميع هذه الألفاظ التى تولّدت وانشقّت من هذه المواد الثلاث إنّما ترجع إلى أصل لغوى واحد ، ثُنائى الحروف أُحادىّ المَقْطع هو (ق ن) . وسنجد ، إذا ما استشففنا ما ذكرَتْهُ المعاجم عن هذه الألفاظ كلّها ، أن بينها معنى عامًّا تشترك فيه جميعها ، وتطوّف حوله ، وقد يكون طوافها قريبًا ملاصقًا وقد يكون بعيداً نائيًا ، ولكنّه على الحالين طوافٌ حول هذا المعنى العام واستشراف له .

وسنجد أن هذا المعنى الذى تدلّ عليه هذه الألفاظ دلالةً عامّةً حينًا ، وتدلّ على ضرب خاص منه حينًا آخر ، وتدلّ على بعض نتائجه أو آثاره حينًا ثالثًا ، إنّما هو معنى « العمل والصنع وآلتهما وأداتهما » .

فإن صحّ أن الدلالة الحسيّة للفظة سبقت الدلالة المعنويّة ، وأن أسماء الأشياء والذّوات سبقت ألفاظ الفعل والحَدَث ، إن صحّ ذلك جاز لنا أن نرجّح أن أوّل معنى لهذه السلالة اللغويّة هو « العصا » ، ثمّ ما يشبهها كالرّمح والقَناة :

(ا) « فكلّ خشبة عند العرب قناة وعصا ، والرمح عصا . . . وقال أبومنصور : القناة من الرماح ما كان أجوف كالقصبة ، ولذلك قيل للكظائم التى تجرى تحت الأرض : قنوات ، واحدتها : قناة ، ويقال لمجارى مائها : قصب تشبيهاً بالقصب الأجوف »[١] . « والقان : شجر للقسى ينبت فى جبال تهامة »[٢] .

(ب) ثمّ صار القَنّ : الضرب بالعصا[٣] . وقان الحديدة قَيْناً : عملها وسوّاها ، وقان الشيء لمّه ، وقان الإناء يقينه قيناً : أصلحه ، وأنشد أبو الغَمْر الكلابى لرجل من أهل الحجاز[٤] :

وَلى كَبِدٌ مَجرُوحَةٌ قَد بَدَتْ بهَا صُدُوعُ الهَوَى لوْ أَنَّ قيناً يَقينُهَا

(ح) ثمّ صار كلّ صانع أو عامل قيناً ، وكلّ صانعة قينة[٥] .

ولمّا كان العمل واحتراف الصناعة ممّا يقوم به العبيد دون الأحرار السادة ، والإماء دون الحرائر ، أطلقت كلمة القين على العبد ، والقينة على الأمَة ، وعبدٌ قِنّ : مُلِكَ هو وأبواه ، قيل : هو من القِنْيَة[٦] .

ويغلب على ظنى أن القِنْيَة والاقتناء إنّما هما حلقة فى هذه السلسلة نفسها . فلمّا كان العمل يفيد فى نتيجته تملّك الصانع للشيء المصنوع صارت « القُنْوَة » أو « القِنْيَة » بمعنى الاكتساب والحيازة والتملّك ، وما أوثق الصلة بين هذا المعنى والقين والقينة بمعنى العبد والأمَة .

* * *

ولم يكن الأمر عندنا ، كما يبدو فى هذه الإلمامة ، سهلاً ميسوراً قريب المأخذ

---

(١) اللسان (قنا) .
(٢) التاج (قان) .
(٣) القاموس (قن) .
(٤) التاج .
(٥) المفضل بن سلمة ، الفاخر : ٢٣٩ ، وكذلك اللسان (قينة) .
(٦) أساس البلاغة ، والتاج .

خالصًا من الاضطراب ، وإنّما بسطنا هنا ما استشففناه منه وما رأينا أنّه أصل المعنى وتدرّجُه ونموّه . . . وقد كان فى المعاجم متداخلاً متراكمًا ، قد اندسّ بينه كثير من المجاز والمُحْدَثات ، وزاد فى اضطرابه آراء رجال اللغة والرواة .

فأمّا المجاز ومستحدثات المعانى فظاهرة لغويّة لا تحتاج إلى تفصيل فى القول لشيوعها فى اللغات جميعها ولا سيما العربيّة . وإنّما تنشأ من تشابه فى الصّوَر الذهنيّة . ومن هذا القبيل إطلاق القناة على الرمح ، وعلى الكظيمة التى تجرى تحت الأرض ، وعلى كثير من المفردات المبثوثة فى ثنايا هذه المواد اللغويّة فى المعاجم .

وأمّا اضطراب آراء رجال اللغة والرواة فليس أدلّ عليه من هذه المذاهب الشتيتة التى ذهبوا إليها فى كلمة « القين » و « القينة » ، فينحو بعضهم منحى التعميم المطلق فيجعل « القين » العبد مطلقًا وكلّ صانع ، و « القينة » الأمة مطلقًا وكلّ صَانعة . ويأبَى آخرون هذا التعميم فيضيّقون مدلول الكلمة ويخصّونها بصفات معيّنة « قال ابن السكيت : قلت لعمارة : إن بعض الرواة زعم أن كلّ عامل بالحديد قين ، فقال : كذب ، إنّما القين الذى يعمل بالحديد ويعمل بالكير ولا يقال للصانع قين ولا للنجار قين . وقال السكرى ، رحمه الله : كلّ صانع يعالج صنعة بنفسه فهو قين إلاّ الكاتب »[1] .

والقينة الأمة المغنية ، وقيل : القينة الأمة مغنيةً كانت أو غير مغنية . قال الليث : عوام الناس يقولون : القينة المغنية . قال أبو منصور : إنّما قيل للمغنية قينة إذا كان الغناء صناعة لها وذلك من عمل الإماء دون الحرائر . والقينة الجارية تخدُمُ حَسْبُ . . . وقول زهير :

رَدّ القيانُ جِمَالَ الحَىّ فَاحتَمَلُوا إلى الظَّهِيرَة أَمْرٌ بَيْنَهُمْ لَبِكُ

أراد بالقيان : الإماء . . . وقيل : العبيد والإماء . . . قال أبو بكر : « قولهم — فلانة قينة معناه فى كلام العرب الصانعة ، والقين : الصانع . . . والقينة

---

(١) التاج .

هى الأمة صانعة كانت أو غير صانعة . . . قال أبو عمرو : كلّ عبد عند العرب قين والأمة قينة . قال : وبعض الناس يظنّ القينة المغنية خاصة ، قال : وليس هو كذلك . . . وقيل للمرأة مقيِّنة أى أنّها تزيِّن . قال الجوهرى : سمّيت بذلك لأنّها تزين النساء شُبِّهت بالأمة لأنّها تصلح البيت وتزيّنه . . . واقتانت الروضة إذا ازدانت بألوان زهرتها وأخذت زخرفها ، وأنشد لكُثَيِّر :

فَهُنَّ مُنَاخَاتٌ عَلَيهنَّ زِينَةٌ كمَا اقْتَانَ بالنَّبْت العِهادُ المُحَوَّفُ

. . . والقينة الماشطة . . . »[1]

ويجدر بى فى هذا المجال أن أشير إلى محاولة متقدّمة لابن فارس (المتوفى سنة ٣٩٥ هـ) إذ سعى فى معجمه « مقاييس اللغة » إلى ردّ مفردات اللغة إلى أصول ذوات دلالات عامّة ، تفرّعت عنها الألفاظ والمعانى التى انطوت تحت تلك المواد . ولكنّه — على سَبْقه وتقدّمه — لم يوفّق فى إرجاع هذه الوفرة الطامية إلى أصول قلائل ثُنَائية ، بل اكتفى بإرجاع كلّ مادة منفصلة وحدها إلى ما خُيِّل إليه أنّه أصل لها ، فكثرت عنده الأصول كَثْرَة المواد المعجميّة نفسها . فلو ضربنا لمحاولته هذه مثلاً بما نبحثه الآن لرأيناه يرجع مادة « قنا » إلى « أصلين : يدلّ أحدهما على ملازمة ومخالطة ، والآخر على ارتفاع فى شىء ، فالأوّل قولهم : قاناه إذاخالطه كاللون يقانى لونًا آخر غيره . . . ومن ذلك قولهم : ما يقانينى هذا أى ما يوافقنى ، ومعناه أنّه ينبو عنه فلا يخالطه ، ومن الباب : قنا الشىء واقتناه إذا كان ذلك معدًّا له لا للتجارة . والقِنْو : العِذْق بما عليه لأنّه ملازم لشجرته . ومن الباب : المَقْنَاة من الظلّ وهو مكان لا تصيبه الشمس ، وإنّما سمّى بذلك لأن الظلّ ملازمه لا يكاد يفارقه . . .

---

(١) اللسان (قين) .

وفى طبقات ابن سعد ٧ : ١٠٥ « أبو طلحة الأسدى قال : حدثتنى امرأة مطرف بن عبد الله بن الشخير (توفى سنة ٨٧ هـ) أن مطرفاً تزوجها على ثلاثين ألفاً وبغلة وقطيفة وقينة ورحالة . قال بشر (أى أبو طلحة) فقلت لها : ما قينة ؟ قالت : ماشطة » .

والأصل الآخر — عند ابن فارس — القنا : احديداب فى الأنف . . . ويمكن أن تكون القناة من هذا لأنّها تُنْصَب وتُرْفَع ... وقناة الماء عندنا مشبهة بهذه القناة إن كانت قناة الماء عربيّة والتشبيه بها ليس من جهة ارتفاع ولكن هى كظائم وآبار فكأنّها هذه القناة لأنّها كعوب وأنابيب »[١] .

ويجعل مادة (ق ى ن) « أصلاً صحيحًا يدلّ على إصلاح وتزيين ، من ذلك . . . القينة : الأمة مغنيةً كانت أو غيرها ، وقال قوم : إنّما سمّيت بذلك لأنّها قد تُعَدّ للغناء . وهذا جيّد »[٢] .

وقد ارتضينا من ابن فارس هذا التسلسل والتشقّق فى المعانى والدلالات ، ولكنّنا لا « يقانينا » إرجاعه كلّ مادة إلى أصل أو أصلين[٣] ، بل ذهبنا إلى أن هاتين المادتين ومادة ثالثة هى (ق ن ن) إنّما ترجع فى مبدئها الأوّلىّ إلى أصل واحد تدرّج فى ثلاث مراحل ، كان فى كلّ مرحلة يتشقّق ويتفرّع إلى دلالات وألفاظ جديدة .

* * *

وأحسب أن فى هذا القدر من بحث الكلمة فى اللغة العربيّة ما يكفينا لهذا الموضوع ، وإنّما يحسن بنا ، استيفاءً للبحث ، أن نرى هذه الكلمة فى اللغات السامية الأخرى أوّلاً ، وفى اللغات الهندوأوربية ثانيًا . ولن يطول بنا المضىّ حتى نجد أن هذه المادة اللغويّة موجودة فى اللغات السامية المختلفة بمعان هى هذه المعانى التى رأيناها فى اللغة العربيّة . فهى فى اللغات السامية تدلّ على الصّنع والعمل ، ثمّ على الصانع أو العامل وما يتصل بهما من آلات وأدوات . والشأن فى هذه اللغات هو الشأن ذاته فى اللغة العربيّة ، فهى حينًا تُطلق الكلمة إطلاقًا شاملاً ، وحينًا آخر تَقْصُرها على مذهب معيّن كالغناء ، أو بعض أدواته ،

---

(١) مقاييس اللغة (قنا) ٥ : ٢٩ — ٣٠ .

(٢) مقاييس اللغة (قين) ٥ : ٤٥ .

(٣) وحين يعرض ابن فارس لمادة (قن) ٥ : ٤ يقول : « القاف والنون باب لم يوضع على قياس ، وكلماته متباينة ! ! ! » .

أو لون خاص من الشعر الذى يُغَنَّى : فى اللغة البابليَّة الآشورية« (قنو) : بمعنى قنا ، أى قصبة ، ثمّ نراه مستعملاً للدلالة على العصا التى هى من القصب ، والتى تستعمل للضرب . ثمّ استعمل للدلالة على المقياس الذى ما زال مستعملاً إلى اليوم ، وهو القصبة ، وطولها ستّ أذرع أو سبع . وهو يدلّ فى الأكادية أيضًا على معنى خشب العود المستعمل فى البخور ، واستعملته مركبًا للتعبير عن قلم الكتابة . . . وشاركت العربيَّةَ فى استعمال : قنا أو قناة ، بمعنى الرمح اللغاتُ السامية الأخرى ، فى العبريَّة (قين) بمعنى : رمح ، وفى الحبشيَّة : (قَنَت) بمعنى : تدجَّج بالسلاح . . . ثمّ نجد فى الآراميَّة (قينانا) بمعنى : حدّاد أو صائغ أو صرّاف ، و (قينا) أو (قينثا) بمعنى : أغنية أو نغمة أو لحن ، و (قنقن) بمعنى : غنى . وفى العبريَّة (قينا) : المرثية . وفى الحبشيَّة : (قنة) أى غناء ، و (قنو) بمعنى : غنى ، و (قانى) : يعزف ، و (قنى) : خدمة أو عمل ، و (قنيت) : أمة »[1] .

ويتصل بالغناء والمغنية الآلات الموسيقيَّة . فالقنين : طنبور الحبشة ، عن الزجاجى . والتقنين : الضرب بالقنين . والقانون : الآلة الموسيقيَّة المعروفة لنا الآن ، ويذكر صاحب اللسان فى مادة (قنن) لفظ قانون ويقول فيه : « وقانون كلّ شىء طريقه ومقياسه . ونلاحظ هنا قنا بمعنى قصبة كمقياس ، قال ابن سيده : وأراها دخيلة . والقوانين : الأصول ، الواحد : قانون ، وليس بعربى »[1] .

* * *

وأمَّا اللغات الهندوأوربية فقد وُجدت هذه المادة فى أصلين من أصولها ، هما اللغتان اليونانيَّة واللاتينيَّة . ولو اقتفينا دلالات الألفاظ المختلفة التى تحدّرت من هذه المادة لما عَدَونا ما وجدناه فى اللغة العربيَّة ثمّ فى اللغات السامية ، ولرأينا الشبه كبيراً فى أصول الدلالات وتفرّعاتها . وإنّما يعنينا أن نشير إلى لفظ من

---

(١) الدكتور فؤاد حسنين – مقال فى مجلة كلية الآداب – المجلد الحادى عشر – الجزء الثانى – ديسمبر سنة ١٩٤٩ ص ١٩ – ٢١ . وراجع أيضاً :

Encycl. Biblica, Hebrew & Eng. Lexicon of the Old Testament.

ألفاظ هذه المادة هو الدال على الغناء ، وهو : Khainô اليونانى ، و Cano اللاتينى ، وكلاهما فعل يدلّ على الغناء . ويذهب الأستاذ الدكتور فؤاد حسنين إلى سامية هذا اللفظ ، وأنّ هاتين اللغتين إنّما أخذتاه عن اللغات السامية ، فهو يقول إن « من أمثلة أثر الأسرة العربيّة فى غيرها ، كما يعترف رجال اللغات الأوربيّة قديمها وحديثها ، أن لفظنا السامىّ شقّ طريقه إليها ، واحتلّ منها مكانًا هامًّا . ولنبدأ باللغة اليونانيّة الّتى كانت حلقة الاتصال بين لفظنا وبين اللغات الأخرى فهى أوّل لغة تعرّفت إليه ، ومن ثَمّ استعارته منها سائر أخواتها كاللاتينيّة وما إليها ، والألمانيّة والإنجليزية وغيرها . فإذا تصفّحنا المعاجم اللغويّة اليونانيّة ، الّتى اهتمّت بأصول المفردات واشتقاقاتها ، وجدناها مجمعة على أن لفظ Kanna (كنّا) المستعمل بمعنى « قنا » فى العربيّة ، دخيل ، وأنّه سامىّ »[1] .

وقد تطرق الأب أنستاس مارى الكرملى إلى هذه اللفظة فى جملة عابرة ذكر فيها أن « القينة من فعل Cano اللاتينى أو Khainô اليونانى — أى غنّى — وكلا اللفظين من غنّى العربيّة »[2] .

و يبدو لى أن الأب أنستاس يريد أن يجعل كلمة « غنّى » العربيّة أصلاً لغويًّا لقينة ، وأن اليونان أو الرومان قد أخذوا كلمتهم من « غنّى » فحرّفوها بما يوافق نطقهم ، ثمّ جاء العرب وحرّفوا التحريف اليونانى أو اللاتينى فكان من ذلك لفظ قينة . وما أظنّ هذا الرأى يتفق مع ما قدمنا .

* * *

وخلاصة القول فيما تقدّم أن فى العربية ثلاث مواد معجميّة هى : (ق ى ن) و (ق ن ن) و (ق ن ا) ، يبدو لنا أنّها من أصل ثُنَائى هو (ق ن) . وأن بين ألفاظ هذه المواد نسبًا قريبًا ودلالات عامّة شاملةً تشترك فيها هذه

---

(١) المصدر السابق .

(٢) الإكليل ٨ : ١٦٥ .

الألفاظ جميعها . وأن هذه الدلالات المشتركة إنّما سارت فى ثلاث مراحل :

أولاها : معنى الشجرة أو العصا أو ما أشبههما من حيث الشكل : كالقصبة والقنا والرمح وقناة الماء ، وإنّما هذه آلات أو أدوات للعمل والصنع .

والمرحلة الثانية هى : معنى العمل أو الصنع ذاته مثل : القَنّ الضرب بالعصا ، وقان الحديدة أو الإناء أصلحهما ، وقان الشىء لَمّه .

والمرحلة الثالثة : معنى العامل أو الصانع مطلقًا أو مخصصًا وما يتبعه من معنى الامتلاك والاقتناء . . .

ولا ضير علينا إذا رجّحنا أن هذه المادة ساميّة الأصل ، وآية ذلك وجود هذه المادة فى جميع اللغات الساميّة بألفاظ متشابهة ومعان متقاربة ، ثمّ هذه الوفرة الطامية من المفردات فى صيغ واشتقاقات مختلفة ذات دلالات ومعان شتّى ، وعَهْدُنا باللفظ الأعجمى أن تأخذه لغتنا على صورته أو تعدّل منه تعديلاً يسيراً يكسوه مسحةً عربيّة ، ولكنّها لا تتوسّع فى الاشتقاق منه ولا التفريع عنه ، لا فى اللفظ ولا فى المعنى . وأكثر الألفاظ الدخيلة إنّماهى كلمات مفردات لا ترقى إلى مرتبة المادة اللغويّة التى تنحدر منها ألفاظ وتتسلسل فروع .

* * *

ويجدر بنا بعد أن أحطنا بالمادة من حولها ، وأطلنا التطويف بها ، أن نخصّ لفظة « القينة » بحديث يقتصر عليها . والذى يبدو لنا — بعد الذى قدّمناه — أن « القينة » ، فى أصل مدلولها ، إنّما هى مؤنث « القَيْن » بمعنى الصانع أو العامل إطلاقًا ، فالقينة إذن هى المرأه الصانعة أو العاملة . . . ولمّا كان العمل واحتراف الصناعة ممّا يقوم به العبيد دون السادة ، والإماء دون الحرائر ، صارت « القينةُ » الأمةَ الصانعة . ونجد آثار هذه المرحلة فى مثل « المُقَيِّنَة » وهى التى تُزَيِّن العروس[1] ، والماشطة[2] .

---

(١) المفضل بن سلمة ، الفاخر : ٢٣٨ — ٢٣٩ .

(٢) اللسان .

ولمّا كانت كلّ أمَة تُقْتَنَى لا بدّ أن تقوم بعمل ، صارت القينة بمعنى الأمة إطلاقًا . ولعلّ فى هذا ما يفسّر اضطراب الروايات التى ازدحمت بها المعاجم فى هذه المادة من تعميم اللفظة أو تخصيصها . ثمّ صار أن أُطْلِقَت « القينة » على نوع خاص من الإماء هنّ الإماء المغنيات ، وقد بقيت — حتى فى هذا المعنى المتأخر الحديث — محافظةً على معنى العمل أو الصنع ، فقد جاء فى الفاخر « كلّ صانع فهو قين ، والصانعة قينة ، وبذلك سُمّيت القينةُ لأنّها تعمل بيدها » . ونقل ابن فارس فى مقاييس اللغة أنّها إنّما سُمّيَت بذلك لأنّها قد تُعَدّ للغناء ، وقد عَقّبَ على هذا الرأى بقوله : وهذا جيّد . . . وذكر البغدادى فى خزانته[1] أنّه « إنّما قيل لها قينة لأنّها تعمل بيديها مع غنائها » .

ونحن حينما نكتب هذا البحث إنّما نتّجه إلى هذا المعنى الأخير من معانى القينة الذى يخصّصها بالأمة المغنية وحدها .

---

(١) البغدادى ، خزانة الأدب — المطبعة السلفية ٤ : ٢٢٩ .

أسماء الأمة المغنية

نجد فى ثنايا بحثنا عن الأمة المغنية فى العصر الجاهلى أنّها كانت تُعرَف بأسماء شتّى ، أشهرها وأعمّها : القينة . ولا بدّ لنا لنستوفى هذا البحث من أن نشير إلى الأسماء الأخرى ، ونجمع شتيتها حتى ينتظمها سلك واحد فتكتمل بذلك الصورة اللغوية للأمة المغنية فى العصر الجاهلى . وسنلحظ فى أثناء عرضنا لهذه الأسماء أن بعضها ، فى أصله ، صفاتٌ مشتقّة من أفعال تفيد السماع والغناء ونحوهما ، ثمّ جرت هذه الصفات مجرى الأسماء ، فَغَلَبَتْ وعُمِّمَتْ وصارت تقوم وحدها لتدلّ على المغنية .

فمن تلك الأسماء (الكَرِينَة) — وهى مشتقّة من الكِران ، وهو : العود ، وقيل : الصّنج . . . قال لبيد :

صَعْلٌ كَسافلَةِ القَناة وَظيفُهُ وكأَنَّ جُؤْجُؤَهُ صَفيحُ كِرَانِ

والجمع : أكرنة . فالكرينة إذن : المغنية الضاربة بالعود أو الصنج . وفى حديث حمزة ، رضى الله عنه : فغنّته الكرينة ، أى المغنية الضاربة بالكِران . والكِنّارة نحو منه[1] .

وممّن ذكر الكِران وعَزَفَ المغنية به امرؤ القيس :

وَإِنْ أُمسِ مكرُوباً فيا رُبَّ قَيْنَةٍ مُنَعَّمَةٍ أَعْمَلْتُهَا بِكِرَانِ

وقال لبيد :

بِصَبُوحِ صَافيَةٍ وَجَذْبِ كَرِينَةٍ بِمُوَتَّرٍ تَأْتَالُهُ إِبْهَامُهَا

---

(١) اللسان (كرن) و (كنر) .

وقد شرح الزوزنى فى المعلّقات « الكرينة » أنّها : الجارية العوّادة . وقد تُعَمَّمُ لفظة « الكرينة » فتطلق على المغنية عامة ، فقد ذكر الوزير أبو بكر عاصم بن أيّوب أن القينة والكرينة : الأمة المغنية[١]. وكذلك شرح التبريزى فى المعلّقات بيت لبيد السابق فقال : الكرينة المغنية ، وجمعها كرائن . وذكر المسعودى[٢] نقلاً عن ابن خرداذبة أن العرب كانت تسمّى القينة : الكرينة . ويرى الأب أنستاس[٣] أن لفظة الكرينة معربة عن اليونانيّة ، ومعناها : النادبة أو النائحة . فلعلّ المعنى انتقل من الغناء للأموات إلى مطلق الغناء .

* * *

ومن أسماء المرأة المغنية (المُسْمِعَة) — وقد وردت فى الشعر الجاهلى غير مرّة . قال الأعشى[٤] :

وَتُشَاهِدُنَا الوَرْدُ وَالياسَمِي نُ وَالمُسْمِعاتُ بِقُصّابِهَا
وَمِزْمَرُنَا مُعْمَلٌ دائمٌ فَأَىّ الثَّلاثةِ أَزْرَى بِهَا

وقال كذلك يمدح قيس بن معدى كرب الكندى :

هُوَ الوَاهبُ المُسْمِعَاتِ الشُّرُو بَ بَينَ الحَرِيرِ وَبَينَ الكَتَنْ

وقال المُعَقِّر بن أوس بن حِمار البارقى يوم شِعْب جَبَلَة[٥] :

فَباتوا لَنَا ضَيْفًا وَبِتْنَا بِنَعْمَةٍ لَنَا مُسْمِعَاتٌ بِالدُّفُوفِ وَسامِرُ

وقال ابن عَسَلَة الشيبانى — هو حرملة بن حكيم — يعاتب رجلاً من بنى

---

(١) شرح ديوان امرئ القيس : ١٢١ (هندية ١٩٠٦) .
(٢) مروج الذهب (باريس) ٨ : ٨٨ .
(٣) مجلة المشرق ٢ : ٣٤٩ .
(٤) شرح ديوان الأعشى ق : ٢٢ .
(٥) الأغانى (ساسى) ١٠ : ٤٤ .

النمر بن قاسط اسمه كعب لأنّه عرض لقينته[١] :

يا كَعْبُ إنَّكَ لَوْ قَصَرْتَ عَلى حُسْنِ المداحِ وَقِلَّة الغُرْمِ
وَغِنَاءِ مُسْمِعَةٍ تُعَلِّلُنَا حَتى نَؤوب تَنَاؤمَ العُجْمِ
لَوجدْتَ فينا ما تَحوّلَ مِنْ صافى الشَّرابِ ولَذَّةِ الطَّعْمِ

* * *

ومن أسماء المرأة المغنية : (الداجنة) — قال بشر بن عمرو بن مرثد :

وتَبِيتُ داجِنَةٌ تُجاوِبُ مثْلَها خودًا مُنَعَّمةً وتَضرِبُ مَعتَبا

وقد ذكر ابن الأنبارى أن الداجنة هى القينة ، وأن أصل الداجن : المعتاد للشىء الدرب به[٢] .

ومن هذه الأسماء أيضًا : (المُدْجِنَة) — وقد نسب ابن الأنبارى[٣] أبيات ابن عسلة الشيبانى السابقة إلى عبد المسيح بن عَسَلة ويظنّ الآمدى أنّهما أخوان . وروايتها فى شرح المفضليات :

يا كَعْبُ إنَّكَ لَوْ قَصَرْتَ على حُسنِ النِّدامِ وقِلَّةِ الجُرْمِ
وسماعِ مُدْجِنَةٍ تُعلِّلُنَا حتى نَؤوب تَنَاؤمَ العُجْمِ
لَصحوْت والنَّمرِىّ يَحْسبُهَا عَمّ السِّمَاك وَخالَة النَّجْمِ

وقد شرح المدجنة أنّها الداخلة فى الدَّجْن . وكذلك روى بيت لبيد الذى مرّ ذكره آنفًا هكذا :

بِسَماعِ مُدجِنَةٍ وَجَذْب كرِينَةٍ بِمُوَتَّرٍ تَأْتَالُهُ إبْهَامُهَا

---

(١) الآمدى ، المؤتلف والمختلف : ١٥٧ ، رقم ٥١٧ .
(٢) شرح المفضليات (Lyall) LXXI
(٣) شرح المفضليات (Lyall) LXXII ونسبها صاحب المستطرف إلى ابن نفيلة الشيبانى (ط . المحمودية التجارية) ٢ : ٢٠٠ .

وقد شرح التبريزى المدجنة بقوله : هى التى تُسْمَع فى يوم الدَّجْن .

وذكر المستشرق فارمر[١] أنّ للفظتى الداجنة والمدجنة قيمة لغويَّة إذ أنَّهما مشتقَّتان من « دجن » بمعنى « غام » — الدَّجْنُ : إلباسُ الغيم الأرضَ وأقطارَ السماء[٢] — ويرى فارمر أنَّه كان من عادة الداجنة أن تغنى وتعزف حينما تكون السماء ملبدة بالغيوم تستنزل بغنائها المطر .

* * *

ومن هذه الأسماء (الصَّدوح) — أو الصادحة . قال الأعشى[٣] :

وَصَدُوحٍ إذا يُهَيِّجُها الشَّرْ بُ تَرَقَّتْ فى مِزْهَرٍ مَنْدُوفِ

وشرح ثعلب الصدوح بأنَّها : المغنية . وقد رُوى بيت لبيد السابق هكذا :

وسماع صَادحة وَجَذب كرِينَة . . . . . .

* * *

ومن أسمائها أيضًا : (الصَّنَّاجة) — والصناجة الضاربة على الصنج . وقد ميَّزها الأعشى من المغنية فى قوله :

وَمُسْمِعَتَانِ وَصَنَّاجَــةٌ تُقَلِّبُ بالكَفّ أَوْتَارَهَا

ولكنَّنا نجد الصنَّاجة تغنّى فى شعر قاله النعمان بن عَدِىّ فى عهد عمر[٤] :

إذا شِئْتُ غَنَّتْنى دَهَاقينُ قَرْيَةٍ وَصَنَّاجَةٌ تَجْثُو عَلى حَرْف ميسمِ

* * *

---

(١) Hist. of Arabian Music, II

(٢) المحيط — الفيروز أبادى .

(٣) ديوان الأعشى — ط . بيانه .

(٤) معجم البلدان (ميسان) . فى السيرة ٢ : ٢٠٠ « رقاصة تجذو على كل منسم » .

ومن أسمائها كذلك (جرادة) — فقد ذكر الخفاجى[1] أن العرب كانت تسمّى كلّ مغنية جرادة ، وأصله أن قينتين لقبتا بالجرادتين غنتا لوفد عاد عند الجرهمى بمكّة فشُغلوا عن الطّواف فهلكت عاد . وقد أورد فى ذلك البيت الآتى :

يغنينا الجراد وَنحن شَرْبٌ نعُلّ الرّاحَ خالطها السرُورُ

(١) شفاء الغليل — المطبعة الوهبية سنة ١٨٨٢ ، ص ٧٥ ، وانظر : رسالة الغفران (تحقيق الدكتورة بنت الشاطئ — الطبعة الثانية — دار المعارف بمصر) ص : ٢٣٦ ، وفيها « المشور » بدل « السرور » ، وهو العسل المصفى ، ولعلها الرواية الصحيحة وما فى شفاء الغليل تصحيف أو تطبيع .

نظام الرق فى الجاهلية

فإذا كانت القينة بالمعنى الاصطلاحى الذى نريده فى هذا البحث هى الأمة المغنية كان لا بدّ لنا من التعرّض للإماء والرقيق عامة فى العصر الجاهلى تعرّضًا موجزاً نرسم فيه الخطوط الرئيسيَّة لهذا النظام ، من غير أن نعرض للتفصيلات والجزئيات ، ذلك لأن القيان طائفة خاصة من الإماء ، فلا بدّ لتمثّلهن تمثّلاً واضحًا من أن نُلِمّ ببيئتهن الاجتماعيَّة التى نشأن فيها وترعرَعن فى أحضانها .

* * *

وأوّل ما يلفت الدارس فى العصر الجاهلى هو أهمية الرقيق فى الجاهليَّة وخطره . ومردّ تلك الأهمية إلى وجهين :

الوجه الأوّل : كثرة الرقيق من العبيد والإماء كثرة بالغة جعلت الرقيق طبقة اجتماعيَّة كبيرة لها معالمها المميزة وسماتها الواضحة .

والوجه الثانى : خطر الأعمال التى كانت توكل إلى هذه الطبقة وتنوّعها تنوّعًا واسعًا ، حتى ليكاد يخيَّل إلى الباحث فى هذا العصر أن الرقيق هم قِوام العمل فى الحياة الجاهليَّة .

وهذان الوجهان من الوضوح والجلاء بحيث لا نحتاج إلى كبير عناء فى استقصاء النصوص وإيراد الشواهد لتبيانهما ، وإنَّما تغنينا اللمحة العابرة والإشارة الموجزة . وأىّ دليل على كثرة الرقيق فى الجاهليَّة أبلغ ممَّا يطالعنا فى كتب الأدب والتاريخ عامة ، وما يتعلَّق منها بأيَّام العرب خاصة . فإنَّنا لا نكاد نخطو فى قراءة أيَّام العرب حتى تلفتنا عبارات تفيد السَّبْىَ والاسترقاق ، فما أكثر ما يَرِدُ فيها من أنّ « المُغيرين أصابوا نسْوةً والحىّ خُلُوف » ، وأنَّهم « استاقوا النَّعَم وأصابوا نساء » ، وأنَّهم « سبَوْا نساء الحىّ » ، وأنَّهم « أسروا سبيًا كثيراً » .

ونجد فى كثير من المواضع أن النساء قد وُزّعْن بين أفراد القبيلة ، وفى مواضع أخرى أن النساء المَسْبِيّات يُذْكَرْن بأسمائهن ونَسَبهن ، ويحدث ذلك حين تكون المرأة ذات شهرة أو محتد كريم . بل إنّنا لنجد فى يوم النِّسار ثبتًا بأسماء النساء المسبيّات والرجال الذين كنّ من نصيبهم[١] . وقد رووا أن بِسْطام بن قيس بن مسعود قال لأمّه ليلى بنت الأحوص أخت الفرافصة الكلبى : إنى قد أخدمتُك من كلّ حىّ أمَةً ، ولستُ منتهيًا حتى أخدمك أمةً من بنى ضبّة[٢] . وروى أن « سَمَيْدَع بن ناكور الكَلاعىّ وفد على عمر بن الخطّاب ، رضى الله عنه ، وله أربعة آلاف أهل بيت قِنٍّ من العرب مماليك أسرهم فى الجاهليّة ، فسأله عمر أن يبيعهم إيّاه . . . فلمّا راح قال : قد أعتقتهم لله»[٣] .

* * *

كلّ أولئك سبى عربىّ خالص ، ومن القبائل العربيّة نفسها التى كانت تشنّ الغارات والحروب بينها ، فتُسبَى نساؤها ويُسْتَرَقّ رجالها . وهناك مورد من موارد الرقيق لا يقلّ عن الجزيرة العربيّة غزارةً ، هو الرقيق الأجنبى الذى يجلب من خارج الجزيرة العربيّة ، من البلاد التى كانت الصلة محكمة بينها وبين بلاد العرب . وهذه أمهات المراجع العربيّة تزخر بما لا يدع مجالاً للشكّ فى أنّ الجزيرة العربيّة كانت تربطها بغيرها من البلاد المحيطة بها وشائج قويّة وأواصر محكمة .

فكانت أحيانا تنتقل هذه الجزيرة إلى جاراتها مرّةً حين يذهب العرب ، جماعات وأفراداً ، تجاراً يبيعون محصولات بلادهم وما ينقلونه من محصولات البلاد الأخرى . وكانوا فى تجارتهم يضربون فى الأرض ضرباً بعيداً ، فيصلون إلى أقصى ما كان يُعْرَف من عالمهم آنذاك[٤] .

---

(١) النقائض : ٢٤١ .
(٢) النقائض : ١٩٠ .
(٣) النقائض ١ : ٤٦ .
(٤) كهاشم وكان متجره إلى الشام فهلك بغزة ، وعبد شمس وكان متجره إلى الحبشة ، والمطلب وكان متجره إلى اليمن ، ونوفل وكان متجره إلى العراق ، وهم أصحاب الإيلاف من قريش . (راجع لذلك المحبر لابن حبيب : ١٦٢ — ١٦٤ ، والسيرة بولاق ١ : ٤٧) .

ومرّةً حين يفد شعراؤها ورؤساء قبائلها وأصحاب الرأى فيها إلى ملوك المناذرة أو الغساسنة ، أو بلاد كسرى ، أو بلاد مصر والحبشة، فيقيمون هناك ما شاء لهم الله أن يقيموا ، يرون ما لم يروا فى بلادهم ، ويتزوّدون بالجديد الطريف من ألوان الحضارة المتباينة .

ومرّةً حين تستبدّ ببعضهم نزعات نفسيَّة أو خواطر فكريَّة ، فيطلبون فيما نأى عن ديارهم ما يفيدهم علمًا أو يكسبهم يقينًا واطمئنانًا[١] .

وكانت تلك البلاد القريبة أو النائية فى أحيان كثيرة تنتقل إلى جزيرة العرب . فكان بعضها يوافى أسواق العرب ويجتمع فيها للتجارة ، كما كانت تفعل فارس حينما كانت توافى بسوق المشقّر يقطعون البحر إليها ببياعاتهم[٢] . وكان يجتمع فى دَبَا تجارُ الهند والسند والصين وأهل المشرق والمغرب فيشترون بها بيوع العرب والبحر ، ثمّ يسيرون بجميع من فيها من تجار البحر والبر إلى الشّحر شحر مَهْرَة ويبيعونهم ما ينفق بها من الأدَم والبزّ وسائر المرافق ، ويشترون بها الكُنْدُر والمُرّ والصّبر والدُّخْن[٣] .

وإذا كانت التجارة لا تستدعى من هؤلاء التجّار إلاّ مروراً عابراً أو إقامة موقوتة فقد كان فى الجزيرة العربيَّة أجانب غرباء أمّوها لأسباب شتّى ، فأقاموا فيها وأطالوا المقام ، بل إن منهم من امتدّ به المقام حياتَه كلَّها .

وكما تباينت أجناس هؤلاء الوافدين الغرباء ، واختلفت مقاصدهم وأغراضهم ، فقد تنوّعت أديانهم ومعتقداتهم ، فمنهم المجوسى والنصرانى واليهودى والوثنى . وقد كان من هؤلاء من صار رقيقًا أو مولى ، ومنهم من ظلّ حرًّا لم يغلَّه قيد . . .

وحسبنا أن نذكر فى هذا الصدد بعض ما يدعم ما ذهبنا إليه ، فقد عقد

---

(١) كزيد بن عمرو بن نفيل الذى شك فى الأوثان ورحل يطلب دين إبراهيم حتى بلغ الموصل والجزيرة ثم جال فى الشام (السيرة ١ : ٧٦) وكالحارث بن كلدة الثقفى الذى تعلم الطب بفارس واليمن وضرب العود (طبقات الأمم لصاعد الأندلسى مطبعة السعادة بمصر ص : ٧٤) .

(٢) المحبر لابن حبيب : ٢٦٣ — ٢٦٥ .

(٣) أبو على المرزوقى الأصفهانى — الأزمنة والأمكنة ، ط . الهند ، الباب الأربعون .

ابن حبيب النسّابة فصلاً كبيراً ذكر فيه أبناء الحبشيات فى الجزيرة العربيّة[١] . غير ما نجده من أسماء الحبشيات مبثوثًا فى بطون المراجع الأخرى .

وفى أُسْد الغابة[٢] أسماء كثير من الروم والروميّات ، كزِنّيرة الرومية مولاة بنى مخزوم ، وقيل مولاة بنى عبد الدار ، وأمهات أبى الروم بن عمير ابن هاشم بن عبد مناف[٣] ، وتمام بن عبّاس بن عبد المطّلب ابن عمّ النبىّ ، صلّى الله عليه وسلّم[٤] ، وغيرهما ، فقد كنّ أمهات ولد روميات . والأزرق غلامٌ رومىّ للحارث بن كَلَدة الثقفى الذى خَلَف على سُمَيّة أم زياد[٥] .

وقد ذكر ابن هشام أن ممّا هاج حليمة السعديّة على ردّ الرسول ، صلّى الله عليه وسلّم ، إلى أمّه ، « أن نفراً من الحبشة نصارى رأوه معها . . .[٦] » .

وذكر أيضًا أن قريشًا اجتمعت لبنيان الكعبة ، وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جُدّة لرجل من تجار الروم فتحطّمت فأخذوا خشبها فأعدّوه لتسقيفها وكان بمكّة رجل قبطى نجّار ، فتهيأ لهم فى أنفسهم بعض ما يصلحها[٧] .

وقال شيخ من بنى قريظة : إن رجلاً من يهود من أهل الشام يقال له ابن الهيبان قدم علينا قبيل الإسلام بسنين ، فأقام عندنا[٨] .

وقال سلمان الفارسى : كنت رجلاً فارسيًّا من أهل أصبهان من أهل قرية يقال لها جى ، وكان أبى دهقان قريته ، فقدم علينا ركب من الشام تجّار من النصارى . . . فمكثت بعمّورية ما شاء الله أن أمكث ، ثمّ مرّ بى نفر من

---

(١) المحبر : ٣٠٦ — ٣٠٨ .
(٢) ٥ : ٤٦٢ .
(٣) ٥ : ١٩٤ .
(٤) أسد الغابة ١ : ٢١٢ ، ٤ : ٢٣٢ .
(٥) المرجع السابق ٥ : ٤٨٠ .
(٦) السيرة (بولاق) ١ : ٥٧ .
(٧) السيرة ١ : ٦٥ .
(٨) السيرة ١ : ٧٢ .

كلبٍ تجّارٌ ، فقلت لهم : احملونى إلى أرض العرب[١] .

وكان رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، كثيراً ما يجلس عند المَرْوَة ، إلى مَبِيعة غلام نصرانى يقال له جبر ، عبد لابن الحضرمى ، وكانوا يقولون : والله ما يعلّم محمداً كثيراً ممّا يأتى به إلاّ جبر النصرانى غلام ابن الحضرمى . فأنزل الله تعالى فى ذلك من قولهم إنّما يعلّمه بشر « لسان الذى يُلْحِدون إليه أعجمىّ وهذا لسانٌ عربىّ مُبِين[٢] » .

وحينما قصد الرسول ، صلّى الله عليه وسلّم ، ثَقيفًا رأى فى الطائف عدّاسًا ، فسأله الرسول عن بلده ودينه ، فقال عدّاس : نصرانى ، وأنا رجل من أهل نينوى[٣] .

وقال كعب بن مالك الصحابى : بينا أنا أمشى بالسوق إذا نبطى يسأل عنى من نبط الشام ممّن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة[٤] .

* * *

وقد كان من أثر هذه الوفرة الصاخبة من الرقيق أن قامت فى بعض قرى بلاد العرب أسواق منظمة لبيع الرقيق ، سواء أكان هذا الرقيق من سبى العرب فى حروبهم وغاراتهم ، أم كان ممّن يجلبونه من خارج بلاد العرب من الهند وفارس وبلاد الروم ومصر والحبشة وزنوج إفريقية . قال حسان بن ثابت يوم أُحُد[٥] :

فَلَوْلا لِوَاءُ الحَارِثِيّةِ أَصْبَحُوا يُبَاعُونَ فى الأَسوَاق بَيعَ الجَلائِبِ

---

(١) السيرة ١ : ٧٣ .

(٢) السيرة ١ : ١٣٧ .

(٣) السيرة ١ : ١٤٧ .

(٤) السيرة ٣ : ٤٥ ؛ وانظر أسماء كثير من الرقيق فى المعارف لابن قتيبة : ٦٢ – ٦٥ ثم ما بعدها عن موالى الصحابة ، رضى الله عنهم .

(٥) السيرة ٢ : ٨٣ .

وفى حرب داحس والغبراء « عارض قيس بن زهير بن جذيمة العبسى ظعائن الربيع بن زياد العبسى ، وأخذ زمام أمّه فاطمة بنت الخرشب وزمام زوجته ، فقالت أم الربيع : ما تريد يا قيس ؟ قال : أذهب بكنّ إلى مكّة فأبيعكن بها بسبب درعى » [١] — وكان أخذها الربيع .

« وغزت بنو صاهلة بنى سُلَيْم . . . فقتلوا القوم وأخذوا أسلابهم وأخذوا العائذين عائذاً ومعوذاً سيدَيْهم . فباعوا أحدهما بمكّة وقتلوا الآخر »[٢] .

فمكّة إذن كانت سوقًا من هذه الأسواق[٣] ، وربّما كانت أهمّها ، حيث كانت تقوم هذه التجارة العريضة الواسعة . ولا شكّ أن مكّة لم تكن هى السوق الوحيدة للرقيق ، بل شاركتها فى هذا اللون من التجارة أسواق العرب الأخرى ، فمنها : سوق عكاظ ؛ فقد ذكر ابن سعد[٤] أن سُعْدَى أمّ زيد ابن حارثة زارت قومها « وزيدٌ معها ، فأغارت خيل لبنى القَيْن بن جَسْر فى الجاهليّة فمرّوا على أبيات بنى معن رهط أمّ زيد ، فاحتملوا زيداً إذ هو غلام يفَعة قد أوصف ، فوافوا به سوق عكاظ فعرضوه للبيع ، فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن خويلد . . . لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم ، فلمّا تزوّجها رسول الله ، صلّى الله عليه وسلّم ، وهبته له . . . »

ومنها : سوق دومة الجندل ، فقد ذكر ابن حبيب النسّابة عند حديثه عن سوق دومة الجندل[٥] أنّه كان لكلب فيها قنّ كثير فى بيوت شَعْر ، وكانوا يُكرهون فتياتهم على البغاء .

---

(١) ابن الأثير ، الكامل — ط . ليدن ١ : ٤٢١ .

(٢) أشعار الهذليين — ما بقى منها فى النسخة اللغدونية غير مطبوع ، جمع فلهاوزن ، Stizzen & Vorarbeiten, I ص : ٢٦ .

(٣) وانظر أخباراً عن سوق الرقيق فى مكة فى : طبقات ابن سعد ١/٣ : ١١٦ و ١٦١ ، وكذلك فى المعارف : ١٣٨ .

(٤) طبقات ابن سعد ١/٣ : ٢٧ ، وانظر أخباراً عن سوق الرقيق فى عكاظ فى المعارف : ٦٣ والعقد ١ : ٤٤ .

(٥) المحبر : ٢٦٣ — ٢٦٥ .

وربّما بيع السبي فى غير هذه الأسواق الجامعة التى تقوم فيها تجارات موسميّة ، بل يتفق أن ترحل القبيلة بسبيها فيفد عليها من يريد الشراء فينعقد البيع ، فقد كان الهذيل وبنو رياح يقيلون بيُسُر فاشتروا بعض سبيهم وأطلقوا الباقين[1] .

ومهما تكن أسباب الحروب التى ثارت فى الجاهليّة فإن غايتها كانت الاستيلاء على أكبر قدر من الغنائم والأسرى . فإن كانت الحرب أخذاً بالثأر قُتل الأسرى فى الغالب ، وإلاّ احتفظوا بهم طمعاً فى الفدية . وكان الرجال المشتركون فى الإغارة يطمحون دائماً إلى أن يأسروا نساء أعدائهم .

وكانت النساء اللائى لا تفديهنّ قبائلهنّ ، أو لا يُطْلِقُهنّ الرجل الذى كنّ من نصيبه ، يبقين فى حوزته ، ويصبحن إماء له أو للقبيلة التى أسرتهن . فيقمن بأعمال سادتهن ويتوفرن على خدمتهم . وهنا ينجلى لنا الوجه الآخر لقيمة الرقيق فى الجاهليّة ، وهو خطر الأعمال التى كانت توكل إليهم وتنوّعها تنوّعاً واسعاً . وقد كان الوجه الأول : كثرة الرقيق كثرة بالغة جعلت منهم طبقة اجتماعيّة كبيرة لها معالمها المميزة وسماتها الواضحة وأثرها الاجتماعى البيّن .

* * *

وأما أعمال الرقيق فحسبنا منها كذلك إشارات عابرة ، وسنكتفى بالحديث عن أعمال الإماء من الرقيق دون العبيد ، فهنّ ألصق بصميم موضوعنا .

قال زهير[2] :

رَدّ القِيَانُ جِمَالَ الحَىّ فاحْتَمَلوا إلى الظَّهِيرَةِ أَمْرٌ بَيْنَهُمْ لَبِكُ

أراد بالقيان : الإماء . أنّهن يردون الجمال إلى الحىّ بشدّ أقتابها عليها ، وقيل : القيان هنا : العبيد والإماء .

---

(١) النقائض : ١٠٨٩ .

(٢) اللسان (قين) .

وقال طرفة[١] :

فَظَلّ الإِمَاءُ يَمْتَلِلْنَ حُوَارَهَا وَيُسعَى عَلَينا بالسّدِيفِ المُسَرْهَدِ

يصف فيه أحد الأعمال التى كانت توكل إلى الإماء ، وهو القيام بطهى الطعام وإعداده وتقديمه . فنى بيت طرفة تشوى الإماء فى المَلّة (وهى الرماد الحارّ والجمر) الحُوَارَ (ولد الناقة) ويُقَدّمْنَ للسادة السَّديفَ المُسَرْهَد (شقّق السنام السمين) .

وقال أيضًا[٢] :

تَبِيتُ إِمَاءُ الحَىّ تَطهَى قُدُورَنَا وَيأْوِى إِلَيْنَا الأَشْعثُ المُتَجرَّفُ

وقال أيضًا[٣] :

لا أَرَى إِلاَّ النَّعَامَ بِهِ كَالإِماءِ أَشرَفَتْ حُزَمُهْ

وفى البيت إشارة إلى أن الإماء كنّ يقمن بجمع الحطب وإعداده لإيقاد النار ، وشبّه النعام — وقد رفع من أجنحته — بالإماء الحاملات حزم الحطب .

وقال سُحَيْم عبد بنى الحسحاس[٤] :

فَمَا ضَرّنى أَنْ كانَتْ أُمى وليدةً تَصرّ وتَبْرِى بِاللِّقاحِ التَّوادِيَا

فكانت أمّه تشدّ الخرقة على أطباء الناقة ذات الألبان ، وتبرى العيدان وتشدّها على أخلافها لئلاّ يرضعها فصيلها .

وقد جاء فى النقائض[٥] أن بنى فَزارة « ركبت ورأسهم عيينة بن حصن ،

---

(١) شرح ديوان طرفة للأعلم — ط . شالون ١٩٠٠ ص : ٤١ .

(٢) ديوان طرفة : ١٢٧ .

(٣) ص : ٧٠ .

(٤) ديوان سحيم — ط . دار الكتب ص : ٢٦ ؛ وانظر كذلك شعراً للنابغة وللأخنس بن شهاب التغلبى عن عمل الإماء فى الموشح : ٤٣ — ٤٤ .

(٥) النقائض : ١٠٦٨ .

فأغاروا على التيم . فقتلوهم قتلاً لم يقتلوه أحداً ، وأخذوا مائة امرأة من التيم . فقسمهن عيينة بين بنى بدر . وأخذوا سبياً كثيراً فقتلوهم . فلما نزلوا اشترت بنو فزارة الخمور ليشربوا ، فقال عيينة : ابعثوا العلج بنات تيم فلينقلن زقاقكم . فانطلق نساء تيم ومن كان معهم من رجالهن ينقلون زقاق الخمر إليهم ، ثم أمروهن فجعلن يمزجن فيشربون ، ولا يسقون تيماً محقرة لهم . فأتى لذلك زمان . ثم إن عيينة سأل فى قومه أن يردوا بنى تيم ففعلوا ، فردوا السبى إلى تيم وأطلقوا الرجال بغير فداء . ثم إن بنى مرة أغاروا على التيم . . . فقتلوا التيم وعدياً وعكلاً ، وأخذوا سبياً كثيراً فلم يعتقوا منهن شيئاً واستخدموهن » . فذلك قول جرير :

خَدَمْنَ بَنى غَيْظِ بنِ مُرَّةَ بَعدَمَا خَدَمْنَ النَّدامى من شُرُوبِ بنى بدرِ

إذا ما اشْتَرَوْا خَمراً نَقَلْنَ زِقاقَهُمْ إلَيهِمْ وَلا يَسقُونَ تَيماً من الخَمرِ

وذكر أبو الفرج[1] أن علقمة الجُعْفى غدا فى مَذْحِج ومعه زهير الجعفى « فأتى بنى عقيل بن كعب فأغار عليهم ، وفى بنى عقيل بطون من سُلَيْم يقال لهم بنو بجلة ، فأصاب سبياً وإبلاً كثيرة ، ثم انصرف راجعاً بما أصاب ، فاتبعه بنو كعب . . . حتى وردوا عليهم النخيل فى يوم قائظ ، ورأس زهير فى حجر جارية من سليم من بنى بجلة سباها يومئذ ، وهى تفلّيه ، وهو متوسّد قطيفة حمراء ، وهى تضفر سعفاته — أى أعلى رأسه — بهدب القطيفة ، فلم يشعروا إلا بالخيل . . . »

وذكر ابن هشام[2] أن ضرار بن الخطّاب بن مرداس الفهرى خرج « فى نفر من قريش إلى أرض دوس ، فنزلوا على امرأة يقال لها أم غيلان مولاة لدوس ، وكانت تمشط النساء ، وتجهز العرائس » .

ولم يكن عمل الإماء مقصوراً على الخدمة وتولّى الأعمال ، وإنّما كنّ

---

(١) الأغانى — ساسى ٤ : ١٣٣ .

(٢) السيرة — بولاق ١ : ١٤٤ .

يُبْتَغَيْنَ متاعًا للرجل، ويُتَّخَذْن حليلات حينًا وخليلات فى أكثر الأحيان: « غزا عمرو بن عمرو بن عُدُس فأغار على بنى عبس ، فأخذ إبلاً وسبيًا ، ثمّ أقبل حتى إذا كان أسفل من ثنيّة أقْرُنَ نزل فابتنى بجارية من السبى »[١] .

وإذا كانت المرأة المسبية ذات جمال وفتنة أو مكانة فى قومها ، كانت تربأ بنفسها عن الخدمة، وتطمع فى أن تفوز بسيد القبيلة أو رئيس القوم ، فتتصدّى له لتصيد قلبه فيتخذها لمتعته ، قال أبو ذؤيب الهذلى[٢] :

عَشِيّةَ قَامَتْ بِالفِنَاءِ كَأَنَّهَا عَقِيلَةُ نَهْبٍ تُصْطَفَى وتَغُوجُ

وروى القفطى[٣] أن الحارث بن كَلَدة «كان قد عالج بعض أجلاّء فارس فبرأ ، وأعطاه مالاً وجارية سمّاها الحارثُ سُمَيَّةَ . . . ولدت ولدين قبل زياد أحدهما أبو بكرة ونافع أخوه ، فانتسبا إلى الحارث بن كَلَدة ، وادّعيا أنّه وطئ مولاته سمية فولدتهما منه » .

ولم يكن هؤلاء السادة يكتفون بأن تكون إماؤهم القوّامات على شؤون منازلهم ورعاية أمورهم ، وأن يكنّ فى الوقت نفسه متاعًا فنيًّا لهم أو متعة جسديّة ، بل تجاوزوا ذلك كلّه إلى أن اتخذوهن متجراً ومكسبًا ومَأْكَلَة يدْرِرْنَ عليهم الربح كما تدرّه أنواع المعايش الأخرى .

ذكر ابن حبيب[٤] أن من سننهم فى الجاهليّة « أنّهم كانوا يكسبون بفروج إمائهم ، وكان لبعضهن راية منصوبة فى أسواق العرب فيأتيها الناس فيفجرون بها » وقد ذكر ابن حبيب[٥] أيضًا وأبو علىّ المرزوقى الأصفهانى[٦] عند حديثهما عن سوق دومة الجندل أنّه كان لكلب فيها قنّ كثير فى بيوت أو حوانيت من

---

(١) النقائض : ٦٧٩ .

(٢) ديوان الهذليين — ط . دار الكتب القسم الأول ص : ٥٨ . وفى اللسان : عقيلة سبى .

(٣) القفطى ، إخبار العلماء بأخبار الحكماء ، ط . الخانجى ص : ١١٢ .

(٤) المحبر : ٣٤٠ .

(٥) المصدر السابق : ٢٦٣ — ٢٦٥ .

(٦) الأزمنة والأمكنة : ١٦٦ — ١٧٠ .

شعر ، وكانوا يُكْرِهون فتياتهم على البغاء . قال الله تعالى[١] : (وَلا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدنيا ، ومن يُكْرِهْهُنَّ فَإِنَّ اللهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ) . وقد رُوِى عن ابن عبَّاس[٢] أنَّه قال : كانوا فى الجاهليَّة يكرهون إماءهم على الزنا يأخذون أجورهن فقال الله تعالى . . . الآية .

وذكر النيسابورى[٣] أنَّه « كان لعبد الله بن أُبَىّ رأس النفاق ستّ جوار : معاذة[٤] وأميمة ومسيكة وعمرة وأروى وقتيلة يكرههن على البغاء أى الزنا ، فشكت ثنتان منهن : معاذة ومسيكة إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلَّم » . وكانت سميَّة أمّ زياد « من ذوات الرايات بالطائف تؤدّى الضريبة إلى الحارث ابن كَلَدة ، وكانت تنزل بالمنزل الذى ينزل فيه البغايا بالطائف خارجًا عن الحضر فى محلَّة يقال لها حارة البغايا »[٥] .

ورُوى عن ابن عبَّاس أنَّه قال : « كانت بيوت تسمَّى المواخير فى الجاهليَّة وكانوا يؤاجرون فيها فتياتهم وكانت بيوتًا معلومة للزنا . . . قال ابن جريج وقال عكرمة إنَّه كان يسمَّى تسعًا يَعُدّ صواحب الرايات ، وكن أكثر من ذلك ، ولكن هؤلاء أصحاب الرايات : أم مهزول جارية السائب بن أبى السائب المخزومى ، وأمّ عليط جارية صفوان بن أمَّية ، وجنة (حنه ؟) القبطيَّة جارية العاص بن وائل ، ومرية جارية مالك بن عميلة بن السباق بن عبد الدار ، وحلالة جارية سهيل بن عمرو ، وأمّ سويد جارية عمرو بن عثمان المخزومى ، وسريفة جارية زمعة بن الأسود ، وفرسة جارية هشام بن ربيعة بن حبيب بن حذيفة . . . وفرتنا جارية هلال بن أنس »[٦] . وروى مجاهد وعطاء وقتادة أنَّه « قدم المهاجرون المدينة وليست

---

(١) سورة النور ، آية : ٣٣ .

(٢) تفسير الطبرى ، الميمنية بمصر ١٨ : ٩٢ — ٩٣ .

(٣) غرائب القرآن ورغائب الفرقان — على هامش الطبرى ١٨ : ٨٧ .

(٤) فى الأصل : معارة ، والتصويب عن الإصابة لابن حجر ٨ : ١٨٨ .

(٥) المسعودى ، مروج الذهب ٢ : ٣١٠ — ٣١١ .

(٦) تفسير الطبرى ١٨ : ٤٦ — ٥٣ .

لهم أموال ولا عشائر ، وبها نساء يكرين أنفسهن ، وهن يومئذ أخصب أهل المدينة ، لكلّ واحدة منهن علامة على بابها لتعرف بها»[١] .

وربّما كان لشيوع البغاء بين الإماء أن صارت لفظة بغيّ تعنى أمة ، قال النابغة — ويروى للأعشى :

وَالبَغَايَا يَرْكُضْنَ أَكْسِيَةَ الإِضْـ ـرِيجِ وَالشَّرْعَبِيَّ ذا الأَذْيَالِ

قال ابن السكيت[٢] يشرحه : البغيّ : الأمة ، يقال: قامت على رؤوسهم البغايا أى الإماء . وقال أبو عبيدة والأصمعى : البغايا : الإماء وأولادها ، وهى فى موضع آخر : الفاجرة [٣] .

* * *

وبعد ، فليس المجال مجال استقصاء واستيفاء ، وإنّما هى لمحة سريعة عابرة ، ألممنا فيها بكثير من الأعمال التى كانت الإماء يستقللْن بها ، وأحسبنى أطلتُ فى حديثى عن البغايا ، وعذيرى فى ذلك أنى أردت أن أقْفُوَ آثار مَسْرَبَيْن انحدرا من طبقة الرقيق وتفرعا عن الإماء ، أولهما : البغاء والبغايا المحترفات ، وثانيهما : الغناء والقيان المحترفات . والمسربان — وإن اختلفا وافترقا فى كثير من مراحل سبيلهما — يلتقيان فى أصل منبعهما أوّلاً ، ثمّ فى تعاونهما وتآزرهما فى المواخير والحانات ثانيًا .

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى عمل آخر أشارت إليه بعض النصوص التى ذكرناها ، كان الإماء يقمن به ، وكان له فضل كبير فى تلطّى لهيب الجسد وانطلاق سُعَاره للبغاء والغناء : وهو بيع الخمور وإدارة كؤوس الشراب . وسنرى تفصيل ذلك فيما سيلقانا من صفحات . ومن هنا كان حتمًا علينا أن نقف تلك الوقفة العابرة عند

---

(١) المصدر السابق .

(٢) تهذيب الألفاظ : ٤٧٨ .

(٣) الصبح المنير فى شعر أبى بصير — ط . بيانه ص : ١٠ .

البغاء لهذه الصلة التى بينّاها ، ولما قد يكون لهذه الوقفة من تأثير فى جلاء بعض ما يتعلّق بموضوعنا الأصيل .

وأحسبنى بعد أن قطعت هذا الشوط من البحث قد وصلت إلى مَعْلَم يصل بين ما ذكرتْه المعاجم وصدّرنا به هذا البحث من أن القينة هى الأمة الصانعة ، وبين ما أوردتْه روايات التاريخ وتفسير القرآن من جهة . ونصوص الشعر الجاهلى من جهة أخرى . ورأينا فى ذلك كلّه أن الأمَة كانت تقوم بالعمل والخدمة وبعض الصناعات ، فهى بهذا قينة بالمعنى العام اللغوى ، وأنّها كانت تقوم بلون خاص من العمل هو هذا الغناء المقتصر على سيدها أو العام لروّاد حانتها ، فهى بهذا قينة بالمعنى الخاص الاصطلاحى . الذى غلب المعنى العام ، والذى نعقد حوله فصول هذا البحث — ومن هنا أغفلنا الإشارة إلى غناء القيان واقتطعناه من حديثنا عن أعمال الإماء لنفصّل فيه القول فى الفصول المقبلة .

مواطن القيان

فالقيان إذن ، بالمعنى الاصطلاحى ، جدول من هذه الجداول التى انبثقت من الرقيق عامة والإماء خاصة . ولا بدّ لنا حينما نبحث فى نشأة القيان ومواطنهن من أن نتلمّس ذلك فى محيط الرقيق والإماء . ولن يطول تلمّسنا حتى نعثر على نص صريح يربط بين ما قدّمناه عن علاقة القيان بالإماء وبين ما نذكره الآن عن مواطنهن : يذكر ابن عبد ربه[1] أنّه « إنّما كان أصل الغناء ومعدنه فى أمهات القرى من بلاد العرب ظاهراً فاشيًا ، وهى : المدينة والطائف وخيبر ووادى القرى ودومة الجندل واليمامة ، وهذه القرى مجامع أسواق العرب » . وهذه الأسواق ، كما رأينا ، كانت تعقد فيها تجارة رائجة لبيع الإماء العربيات والجلائب . فلم يكن عجيبًا إذن أن يكون فى توافد القبائل المختلفة من بلاد متباعدة ذات حظوظ متفاوتة من الحضارة والترف ، وفى شهود الوفود والتجار الأجانب من الأقاليم التى تحيط بالجزيرة العربيّة والتى كانت قَدَمُها فى الحضارة والترف لذلك العهد أرسخَ من قدم القبائل العربيّة ، وفى هذه الكثرة الطامية من الرقيق والإماء من البلاد العربيّة نفسها ومن تلك البلاد الأجنبيّة — لم يكن عجيبًا أن يكون فى ذلك كلّه مستّرادٌ خصْب ينمو فيه الغناء وينتشر ، وتكثر فيه القيان ويبرز أثرهن واضحًا ، حتى خيّل إلى ابن عبد ربه وغيره ممّن أشار إلى هذه الحقبة من التاريخ العربى أن أصل الغناء ومعدنه إنّما كان فى أمهات القرى من بلاد العرب — وهى مجامع الأسواق — ظاهراً فاشيًا .

والذى لا ريب فيه أن فى النصوص النثريّة والشعريّة ما يجعلنا نطمئن إلى أن مواطن القيان كانت تنتظم الجزيرة العربيّة كلّها ، سواء فى ذلك أمهات قراها العامرة المائجة بصنوف الحضارة وألوان الترف ، وبواديها المنبسطة

---

(١) العقد ٧ : ٢٨ — ٢٩ .

الغامرة التى كانت تحيا من بعض نواحيها حياة قبليّة بدائيّة ، وسواء فى ذلك قلب الجزيرة وأطرافها حيث كانت تقوم ولايات عربيّة ذات صلات وثيقة بالحضارات الزاهرة لذلك العهد . وسأحاول فى الصفحات الآتية بيان هذه المواطن .

الحيرة وغسان :

فى الروايات التاريخيّة والنصوص الشعريّة ذكر لقيان كانت تموج بهنّ قصور المناذرة والغساسنة وحانات الحيرة وبيوت أشرافها . ونحن نعلم أن بعض الأعلام من شعراء العصر الجاهلى كانوا يفدون على ملوك المناذرة والغساسنة ، يمدحونهم ، ويُسْمعونهم أجود أشعارهم ، ويستمعون لأشعار غيرهم من الشعراء الذين كانوا يحضرون هذه المجالس الأدبيّة الحافلة . ولم يكن الشعر فى تلك المجالس يُلقى إلقاء أو ينشد إنشاداً حسبُ ، بل كان فوق ذلك تغنيه القيان فى حضرة هؤلاء الملوك غناءً لا بدّ أن يكون قد جاوز مرحلة الترنم البدائى البسيط .

روى أبو الفرج[1] أن النابغة استجار برجلين من خاصة النعمان ليسترضياه ، فضرب النعمان عليهما قبّة من أدَم ، ولم يشعر بأن النابغة معهما ، وكان النعمان يرسل إليهما بطيب وألطاف مع قينة من إمائه ، فكانا يأمرانها أن تبدأ بالنابغة قبلهما ، فذكرت ذلك للنعمان ، فعلم أنّه النابغة . . . ثمّ ألقى النابغة عليها شعره :

يَا دَارَ مَيّةَ بِالعَلْيَاءِ فَالسّنَدِ

وسألها أن تغنيه به إذا أخذت فيه الخمر ، ففعلت ، فأطربته ، فقال : هذا شعر عُلْوِىّ ، هذا شعر النابغة .

ويروى عن الغَرِيّيْن — وهما أسطوانتان كانتا بظاهر الحيرة — أن النعمان

---

(١) الأغانى — ساسى ٩ : ١٦٥ .

ابن المنذر بن ماء السماء بناهما على جاريتين كانتا قينتين تغنّيان بين يديه فماتتا فأمر بدفنهما وبنى عليهما الغَرِيَّيْن[١].

ويبدو أن حياة اللهو والترف وما اتّصل بها من أسباب الحضارة الماديّة قد بلغت شأواً بعيداً فى قصور الحيرة ، وأن القيان بلغن من الكثرة ما جعل بهرام جور ، وقد أرسله أبوه يزدجرد إلى عامله المنذر بن النعمان بن امرئ القيس ملك الحيرة ، أن يقترح على المنذر أن يتمّ أياديه عليه ، ويقسم له حظًّا من الجوارى والقيان ليتكامل له طيب العيش بهن ومعهن . وهكذا قسم أيّامه بين اللهو والطرب والتصيد واللعب . فأراد يومًا أن يجمع بين لذات الصيد والسماع والشراب والمعشوق ، فامتطى كريمة من النوق وأردف جاريته آزاذوار الصنّاجة ومعها صنجها واستصحب زُكَيرة من الراح وجام ذهب ، وسار إلى المُتَصَيَّد[٢].

وهذا عدىّ بن زيد يصف لنا مجلس شراب كانت تسقيه فيه قينة فيقول[٣] :

فَدَعَوْا بِالصَّبُوحِ يَوْماً فجاءَتْ قَيْنَةٌ فى يَمينِهَا إبْرِيقُ

ولم تكن القيان وقفًا على القصور والملوك وبيوت السادة والأشراف ، بل كنّ منتشرات فى حانات الحيرة ، وكان يؤمّها طلاب اللذة واللهو حيث ينعمون باحتساء الخمور وسماع الغناء . وفى الأغانى[٤] ذكر لإحدى هذه الحانات ، وكانت صاحبتها قينة يقال لها : بنت عفزر .

وأمّا فى بلاط الشام فالنصّ الذى عثرنا عليه يرجعنا إلى القرن الأوّل قبل الميلاد ، وهى فترة تسبق العصر الجاهلى الأخير بخمسة قرون ، ولذلك كان هذا النص آية بينة على قدم عهد هذه البلاد بهذا اللون من الحضارة والترف . فقد ذكر سترابو Strabo[٥] أن الأنباط كانوا يقيمون ولائم عامة يجتمع فيها المدعوون

---

(١) النويرى ، نهاية الأرب ١ : ٣٨٧ .

(٢) الثعالبى ، غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم — باريس ص : ٥٤١ — ٥٤٢ .

(٣) الأغانى — ساسى ٥ : ١٥٧ .

(٤) المصدر السابق ١٠ : ١٦ — ١٧ .

(٥) Strabo, Geography, 16, 4. 26.

جماعات ، كلّ جماعة ثلاثة عشر مدعوًّا ، تغنيهم فى كلّ حلقة قينتان ، بينما يدير الملك مجرى كؤوس الشراب فى عظمة وأبّهة .

حتى إذا انتقلنا من هذه الفترة إلى العصر الجاهلى الأخير رأينا قصور الغساسنة لا تقصر فى هذا المضمار عن أندادها قصور المناذرة ، كأنّما هى تأبَى إلاّ أن تحافظ على ما ورثته عن قصور الأنباط وولائمهم وقيانهم . وربّما كنّا فى غنى عن ذكر رواية حسان المشهورة فى وصفه أحد مجالسه فى الجاهليّة مع جبلة بن الأيهم حيث رأى عشر قيان : خمس روميات يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمساً يغنين غناء أهل الحيرة وأهداهن إليه إياس بن قبيصة ، غير من كان يفد إليه ليغنيه من العرب من مكّة وغيرها[1] .

المدينة :

فإذا ما خلّفنا الحيرة وغسان ، واتجهنا إلى الجزيرة العربيّة نفسها ، رأينا فى مدينتى الحجاز الشهيرتين — يثرب ومكّة — كثرة من القيان تقوّى ما ذهبنا إليه من انتشار هذه الطبقة فى البلاد العربيّة انتشاراً واسعًا عريضًا .

وكما وجدنا القيان فى بيوت الأشراف والسادة فى الحيرة نجدهن كذلك فى يثرب ، فقد كان أُحَيْحَةُ بن الجُلاح سيّد يثرب وكان ممّن ذهب إلى أبى كَرِب تُبَّع بن حسان حينما عاد إلى المدينة مُجْمِعًا على خرابها ، وكانت مع أحيحة قينة له غنّته فى أبيات قرضها[2] .

وكان عمرو بن الإطنابة الخزرجى ملك الحجاز ، فلمّا بلغه قتل الحارث ابن ظالم خالدَ بن جعفر — وكان خالد مصافيًا له — غضب غضباً شديداً ، وقال : والله لو لقى الحارث خالداً وهو يقظان لما نظر إليه ، ولكنّه قتله نائمًا ، ولو

(١) الأغانى — ساسى ١٦ : ١٤ .
(٢) الأغانى — ساسى ١٣ : ١١٤ — ١١٦ .

أتانى لعرف قدره . ثمّ دعا بشرابه ووضع التاج على رأسه ، ودعا بقيانه فتغنّين له[١] :

عَلّلانى وَعَلّلا صَاحِبَيّا وَاسْقِيَانى مِنَ المُرَوَّقِ رِيّا
إنَّ فينَا القيَانَ يَعزِفْنَ بالدُّ فّ لِفتْيَاننَا وَعَيْشاً رَخيّا

فلمّا بلغ الحارثَ شعره قال مجيبًا له :

اعْزفَا لى بلَذَّةٍ قَيْنَتَيّا قَبْلَ أَنْ يَبْكَرَ المَنُونُ عَلَيّا

وكان لصالح بن عِلاط قيان يعزفن ويغنّين ويسقين الخمر ، كما يبدو لنا من قول حسان[٢] :

رُبَّ لَهْوٍ شَهِدْتُهُ أُمَّ عَمْرٍو بَيْنَ بِيضٍ نَوَاعمٍ فى الرِّيَاطِ
مَعْ نَدَامَى بيض الوُجُوه كرَام نُبِّهُوا بَعْدَ خَفْقَة الأَشْرَاطِ
لِكُمَيْتٍ كَأَنَّهَا دَمُ جَوْفٍ عُتِّقَتْ منْ سُلافَة الأَنْبَاطِ
فَاحْتَوَاهَا فَتًى يُهِينُ لَهَا المَا لَ وَنَادَمْتُ صَالحَ بنَ عِلاطِ
ظَلَّ حَوْلى قيَانُهُ عَازِفَاتٍ مثْلَ أُدْمٍ كَوَانِسٍ وَعَوَاطِ
طُفنَ بالكأْسِ بَينَ شَرْب كرَامٍ مَهّدُوا حُرَّ صَالحِ الأَنْمَاطِ
سَاعَةً ثمّ قال : هُنَّ بدَادٍ بَينكُمْ غيرَ سُمعةِ الإختلاطِ[٣]

وهذه قينة أخرى فى المدينة كان لها أثر أبعد من المتعة الوقتيّة ، فقد استطاعت باللّحن والغناء أن تظهر للنابغة موطن الإقواء فى شعره ، بعد أن هابه أهل يثرب

---

(١) المصدر السابق ١٠ : ٢٨ — ٢٩ .

(٢) ديوان حسان — طبعة ليدن : ٢١ .

(٣) يقول : وهبهن لهم ، أبد كل رجل منهم بجارية ، فأبدهن ندماءه ، أى أعطاهم إياهن . وسمعة الاختلاط : يقول : أعطاهم من غير أن يختلط عقله سكراً وفساداً .

أن يقولوا له : لحنت وأكفأت[١] ، فدعوا هذه القينة وأمروها أن تغنى فى شعره ففعلت ، فلمّا سمع الغناء فى بيتيه :

أَمِنَ آلِ مَيَّةَ رَائِحٌ أَوْ مُغْتَدِ عَجْلانَ ذا زَادٍ وَغَيرَ مُزَوَّدِ

زَعَمَ البَوَارِحُ أَنَّ رِحْلَتَنَا غَدًا بِذاكَ خَبَّرَنَا الغُرَابُ الأَسْوَدُ

وفى بيتيه :

سَقَطَ النَّصيفُ وَلَمْ تُرِدْ إِسْقَاطَهُ فَتَنَاوَلَتْهُ وَاتَّقَتْنَا بِاليدِ

بِمُخَضَّبٍ رَخْصٍ كَأَنَّ بَنَانَهُ عَنَمٌ يَكَادُ منَ اللَّطَافَةِ يُعْقَدُ

بان له ذلك فى اللحن ، وفطن لموضع الخطإ فلم يعد ، وقال : قدمت الحجاز وفى شعرى ضَعَة ، ورحلت عنها وأنا أشعر الناس[٢] .

ولا بدّ أن يكون اليهود قد ضربوا فى هذا المجال بسهم وافر ، وإن كانت النصوص الصريحة لا تسعفنا ، غير أنّنا نجد أن بنى النَّضير حينما أجلاهم الرسول ، صلى الله عليه وسلّم ، سنة ٤ هـ « استقلّوا بالنساء والأبناء والأموال ، معهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن خلفهم[٣] » .

ونساء المدينة وجواريها هن اللائى خرجن يستقبلن رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم ، بالدفوف والمعازف ويغنين :

طَلَعَ البَدْرُ عَلَيْنَا مِنْ ثَنِيّات الوَدَاعِ

وَجَبَ الشُّكْرُ عَلَيْنَا مَا دَعَا لله دَاعِ

أَيُّهَا المَبْعُوثُ فِينَا جِئْتَ بِالأَمْرِ المُطَاعِ

---

(١) الأغانى – ساسى ٩ : ١٥٧ ، وانظر تفصيل القصة فى الموشح : ٣٨ – ٤٠ .

(٢) طبقات فحول الشعراء : ٥٥ – ٥٦ ، والموشح : ٣٨ .

(٣) السيرة – بولاق ٢ : ١٢٩ ، تاريخ الطبرى ٣ : ١٤٥٢ .

وهن اللائى غنين :

نَحْنُ جَوَار منْ بَنى النَّجّارِ يَا حَبّذَا مُحَمّدٌ منْ جَارِ

وقد رُوى عن الرسول ، صلوات الله عليه ، أخبار وأحاديث تتصل بموضوعنا . منها ما رُوى عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت[1] : كانت عندنا جارية يتيمة من الأنصار ، فزوّجناها رجلاً من الأنصار ، فكنت فيمن أهداها إلى زوجها . فقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم : يا عائشة إن الأنصار أناس فيهم غزل ، فما قلت ؟ قالت : دعونا بالبركة . قال : أفلا قلتم :

أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ فَحَيّونَا نُحَيّيكُمْ
وَلَوْلا الذَّهَبُ الأَحْمَـ ـرُ مَا حَلَّتْ بوَادِيكُمْ
وَلَوْلا الحَبّةُ السّمْرَا ءُ لم تَسمَنْ عذارِيكُمْ

ولعلّ فى قوله ، صلى الله عليه وسلّم : إنّ الأنصار أناس فيهم غزل ، ما يشير إلى استشراء هذا الفن بينهم وتمكّنه فيهم .

وروى عن عائشة[2] أيضًا أن أبا بكر ، رضى الله عنه ، دخل عليها وعندها قينتان تغنيان فى أيّام منى وتدففان وتضربان ، والنبىّ ، صلى الله عليه وسلّم ، متغشّ بثوبه ، فانتهرهما أبو بكر ، رضى الله عنه ، فكشف النبىّ ، صلى الله عليه وسلّم ، عن وجهه وقال : دعهما يا أبا بكر فإنّها أيّام عيد ، وروى : أنّه دخل وعندها جاريتان من الأنصار تغنّيان بشعر قيل فى يوم بُعَاث (يوم كانت فيه حرب بين الأوس والخزرج فى الجاهليّة) . وقد ذكر[3] أن اسم إحدى هاتين الجاريتين هو : حمامة ، وأنّها مغنية من جوارى الأنصار .

---

(١) تلبيس إبليس (سنة ١٣٤٧ هـ) : ٢٢٥ .
(٢) الفائق فى غريب الحديث ٢ : ٣٨٨ والغزالى ، إحياء علوم الدين ٢ : ٢٤٥ .
(٣) ابن حجر ، الإصابة ٨ : ٥٣ .

وعن الرُّبَيِّع بنت مُعوِّذ قالت[١] : جاء رسول الله ، صلى الله عليه وسلَّم ، فدخل علىّ غداة بُنِىَ بى ، فجلس على فراشى ، وجويريات لنا يضربن بدفهن ويندبن من قتل من آبائى ، إلى أن قالت إحداهن : وفينا نبىّ يعلم ما فى غد ، فقال لها : اسكتى عن هذه وقولى الذى كنت تقولين قبلها .

وخرج عمر بن الخطَّاب يومًا فإذا جوارٍ يضربن بالدفّ ويغنّين ويقلن[٢] :

تَغَنَّيْنَ تَغَنَّيْنَ فَلِلَّهِ خُلِقْتُنَّ

فجعل عمر يضرب رؤوسهن بالدِّرّة ويقول : كَذَبْتُنّ كَذَبْتُنّ . فأخزى الله شيطانًا رمى هذا إليكنّ .

مكة :

وأمَّا فى مكَّة فإن النصوص التى بين أيدينا ترجعنا إلى عهد أقدم ممَّا عشنا فيه فى الجواء السابقة . وأقدم مايواجهنا من ذكر القيان حديثُ جَرَادَتَىْ عاد، وهما قينتا معاوية بن بكر اللتان غنَّتا لوفد عاد ، حينما قصدوا مكَّة يستسقون ، تذكّرانهم بما وفدوا من أجله . . . وسيأتى خبرهما وتحقيقه مفصلاً ؛ غير أنَّنا نرى فى هذه القصة — إن لم تصحّ — إشارة إلى أن القوم الذين اختلقوها كانوا يعلمون عن قِدَم وجود القيان فى مكَّة ما أباح لهم هذا الاختلاق والوضع . وهو أمر له دلالته التى لا تخلو منها أيَّة قصة ملفَّقة موضوعة .

فإذا جُزْنا هذا العهد السحيق ووصلنا إلى الجاهليَّة الأخيرة رأينا لمكَّة حظًّا من القيان وأخبارهن لا يقلّ عن حظّ مثيلاتها ممَّا ذكرنا وسنذكر .

فقد كانت لقريش قيان كنّ يعزفن لهم ، ويغنّين فى مواسمهم وأعيادهم واحتفالاتهم . وقد أبَى أبو جهل بن هشام أن يرجع — بعد أن أحرز أبو سفيان

---

(١) الإحياء ٢ : ٣٩ .

(٢) ابن الفقيه ، كتاب البلدان : ٤٣ .

عيره – حتى يرد مع قريش بدراً فيقيمون بها ثلاثاً ، وينحرون الجُزُر ، ويطعمون الطعام ، ويسقون الخمور ، وتعزف عليهم القيان ، وتسمع بهم العرب[١] .

وكان لأشراف قريش وساداتها قيان يختصصن بهم ، ويتوفرن على تلهيتهم وإطرابهم وإمتاع جلسائهم وأصحابهم . وأشهر هؤلاء القيان جرادتا عبد الله ابن جُدْعان[٢] ، وقينتا عبد الله بن خَطَل[٣] ، وقيان مِقْيَس بن عبد قيس[٤] ، وسارة مولاة عمرو بن هاشم بن المطّلب ، وعزّة مولاة الأسود بن المطلب ، ومولاة أميّة بن خلف[٥] . وسيأتى حديث بعض هؤلاء القيان مفصلاً فى الفصل الثانى .

وقد كان لحمزة ، رضى الله عنه ، قينة تغنّيه ، فى حديث علىّ ، رضى الله عنه : أصبت شارفًا من مغنم بدر ، وأعطانى رسول الله ، صلى الله عليه وسلّم ، شارفاً ، فأنختهما بباب رجل من الأنصار ، وحمزة فى البيت ومعه قينة تغنّيه[٦] :

أَلا يَا حَمْزَ للشُّرُف النِّوَاءِ وَهُنَّ مُعَقَّلاتٌ بالفِنَاءِ
ضعِ السِّكّينَ فى اللَّبّات منْهَا وَضرّجْهُنَّ حَمْزَةُ بِالدِّمَاءِ
وَعَجّلْ منْ أَطَايِبِها لِشَرْبٍ طَعَاماً منْ قديد أَوْ شِوَاءِ

ولكن ابن الطحان[٧] يذكر أنّهما كانتا قينتين تغنيان حمزة لا قينة واحدة ،

---

(١) السيرة – بولاق ٢ : ١٤ ، وتاريخ الطبرى ١ : ١٣٠٧.
(٢) الأغانى – ساسى ٨ : ٢ – ٥.
(٣) السيرة – بولاق ٢ : ٢١٨ ، وتاريخ الطبرى ١ : ١٦٤٠ .
(٤) شرح ديوان حسان ط . ليدن ص : ٥١ .
(٥) الواقدى ، المغازى : ٢٦ و ٢٩ – ٣٠ .
(٦) الفائق فى غريب الحديث ١ : ٦٥٠ ، وتاج العروس (شرف) ، وكذلك شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون ط دوزى ص : ١٣٩ . وفيه اختلاف فى الشعر ، وانظر شرح الأبيات فى الفائق .
(٧) ابن الطحان ، حاوى الفنون وسلوة المحزون ، ورقة : ١٨ ؛ وانظر ص : ٢٨١ من هذا الكتاب .

وأنّهما كانتا لعبد الله بن السائب المخزومى .

وكان من عادة نساء مكّة أن يخرجن مع الجيش يغنّين له الأغانى الحماسيّة يشجّعنه على القتال . فنى يوم أُحُد قامت هند فى النسوة اللائى معها وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ويحرّضنهم ، فقالت هند فيما تقول[1] :

ويهاً بَنى عَبد الدّار ويهاً حُمَاةَ الأَدْبَار
ضرْباً بكُلّ بتّار

وقالت :

نحْنُ بَناتِ طارقْ نمْشى عَلى النَّمَارِقْ
مَشْىَ القَطا البَوَارِقْ وَالمِسْكُ فى المَفارِقْ
وَالدُّرّ فى المَخانِقْ إنْ تُقْبِلُوا نُعَانقْ
وَنفْرِشِ النّمــارِقْ أَوْ تُدْبِرُوا نُفارِقْ
فِراقَ غيْرِ وَامقْ[2]

اليمامة :

ونتّجه بعد الحجاز مشرّقين إلى اليمامة ، فنراها تنافس مكّة فى قِدَم القيان وبُعْدِ عهدهن ، فإن كان من الروايات ما أرجع القيان فى مكّة إلى عهد عاد فإنّ منها ما أرجعهن فى اليمامة إلى عهد طَسْم وجَدِيس . فنرى أن الشَّمُوس — وهى عفيرة بنت عباد — لمّا أرادوا حملها إلى زوجها انطلقوا بها إلى عمليق لينالها قبله ، ومعها القيان يتغنّين[3] :

---

(١) الواقدى ، المغازى : ١٧٦ — ١٧٧ ، وانظر كذلك ص : ١٦١ و ١٦٣ .
(٢) وانظرشرح التبريزى لحماسة أبى تمام ٢ : ٣٥ .
(٣) الأغانى — ساسى ١٠ : ٤٦ ، ومروج الذهب — باريس ٣ : ٢٧٨ — ٢٧٩ .

إبْدَىْ بِعمليقٍ وَقُومى فارْكبى وَبَادِرِى الصّبْحَ بِأَمرٍ مُعجِبِ
فسَوْفَ تلقَينَ الذى لمْ تطلبى وَمَا لبِكْرٍ عندَه من مَهْرَبِ

ولن نقف طويلاً عند هذا النص لتحقيقه ، فيكفينا منه ما كفانا من نص جرادتى عاد من الدلالة الواضحة التى ترمز إلى علمهم ، أو شعورهم ، بقِدَم وجود القيان فى تلك البلاد .

حتى إذا عَدَوْنا هذه الفترة إلى الجاهليّة الأخيرة رأينا بشر بن عمرو بن مرثد يصف لنا قينة تجاوب قينة أخرى وتطارحها الغناء فى مجلس من مجالس الأنس والشراب[1] :

لا أَسْتكينُ منَ المَخافة فيهِمُ وإذا هُمُ شربُوا دُعيتُ لأَشْرَبَا
وَإذا هُمُ لعبُوا عَلى أَحْيَانِهِمْ لمْ أَنْصَرِفْ لاَ بِيتَ حتى أَلْعَبَا
وَتبِيتُ دَاجنةٌ تُجَاوِبُ مثْلها خَوْدًا مُنعَّمَةً وَتضرِبُ معتبَا
فى إخوَةٍ جَمَعوا ندًى وَسَمَاحة هُضْمٍ إذا أَزْمُ الشّتاءِ تزغَّبَا

وسيمرّ بنا أن بِشْراً هذا قد فرّ من الحيرة من النعمان إلى اليمامة موطن قبيلته — عشيرة سعد بن مالك — ومعه قينتاه خُلَيْدة وهُرَيْرَة ، وسنفصل القول عن هاتين القينتين وتحقيق الروايات التى تنسب إليهما الغناء فى الفصل الثالث من الباب الثانى عند حديثنا عن الأعشى شاعر القيان .

واليمامة موطن الأعشى الذى أفاض فى وصف القيان ، ولكنّنا مع ذلك لا نستطيع أن نجد فى شعره ذكراً لقيان نجزم أنّهن كن فى اليمامة إلاّ غزله فى هُرَيْرَة وخُلَيْدَة وقُتَيْلة ، ولكنّنا نستروح من غرامه بالغناء وشغفه بذكر القيان أنّهنّ كنّ ركنًا ذا خطر من أركان حياته فى اليمامة — تلك الحياة التى كانت تقوم على اللذّة والمتعة .

---

(١) المفضليات — ليل : LXXI

اليمن وحضرموت :

ونتابع سيرنا حتى نصل إلى اليمن وحضرموت ، فنجد أن النصوص التى عثرنا عليها لم تبخل على هذه البلاد — كما لم تبخل على سابقاتها — فأشارت إلى وجود قيان فى عهد عاد . فقد ذكر الهمدانى[١] — عند حديثه عن مغارة متقادمة عاديّة فيها قبر ورعة بنت عاد ومنسك بن نعيم خازن عاد — أن فى تلك المغارة تمثالين عظيمين « قد مسخهما الله جلّ ذكره حجرين ، وهما فى صورة قينتين ، فى حِجْر إحداهما عرطبة — أى طنبورة — قد مسخت . وفى يد الشمال مزمار ممسوخ » . ثمّ يذكر[٢] لنا أن عمرو بن عامر مزيقياء — أعظم ملك بمأرب ، وكان له تحت السد من الجنات ما لا يحاط به ، وفى زمنه خرب السد — خرج إلى بعض حدائقه ومعه قينتان له .

ثمّ ننتقل إلى نوع آخر من النصوص ربّما كان له من القيمة التاريخيّة ما يبعث شيئاً من الطمأنينة ، ذلك النص هو القوانين والشرائع التى سنّها جريجنتوس ، أسقف ظَفَار ، عاصمة حِمْيَر زمن أبرهة . فى هذه القوانين أحكام[٣] تتعلّق بالزنا والبغاء وحدّ المحصن وغير المحصن ، وهى تحظر على المغنين والعازفين والممثلين والراقصين مزاولة فنونهم ، وتعاقب من يمارسها بالجلد والحبس سنة مع العمل الشاق .

فالغناء والقيان فى اليمن — على ما تزعم روايتا الإكليل — قديمة قدَم عاد ، ثمّ إن لها من الذيوع والانتشار — فى أوائل القرن السادس الميلادى — ما يضطرّ ذوى السلطان إلى سن القوانين للحدّ منها والقضاء عليها . ونعود إلى نصوصنا الشعريّة فنرى ذا جَدَن الحميرى يذكر حميراً وما دخل عليها من الذل بعد

---

(١) الهمدانى ، الإكليل ٨ : ١٦٠ — ١٦٥ .

(٢) المصدر السابق ٨ : ٢٦٣ — ٢٦٦ .

(٣) Bury, History of the Later Roman Empire, 1923, vol. II, 413
نقلا عن Homeritarum Leges, Patrologia Graeca XXXVI, 1. 581 Sqq.

العزّ الذى كانوا فيه ، وما هدم من حصون اليمن (زمن أرياط — الحبشة) فيقول[١] :

دَعينى لا أَبَا لكِ لنْ تُطيقى ... لَحَاكِ اللهُ قدْ أَنزفْتِ رِيقى
لدَى عَزْفِ القيَانِ إذا انْتشيْنا ... وَإِذْ نُسْقَى منَ الخمْرِ الرّحيقِ
وَشُرْبُ الخمْرِ ليسَ عَلىّ عَارًا ... إذا لمْ يَشْكُنى فيها رَفيقى

وكان امرؤ القيس بعد ما طرده أبوه يسير فى أحياء العرب ومعه أخلاط من شُذّاذ العرب ، فإذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد ، أقام فذبح لمن معه فى كلّ يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيد ، ثمّ عاد فأكل وأكلوا معه ، وشرب الخمر وسقاهم وغنته قيانه[٢] . وهو القائل :

وَإِنْ أُمْسِ مَكْرُوباً فيَا رُبّ قيْنةٍ ... مُنعَّمَــةٍ أَعْمَلْتُها بِكِرَانِ
لها مِزْهَرٌ يَعْلو الخميسَ بصَوْته ... أَجَشّ إذا مَا حَرّكتْهُ اليَدَانِ

وكان امرؤ القيس يأمر قيانه أن يغنّين بشعر مُرّة بن الرُّوَاع — وكان من قدماء شعراء بنى أسد — وكان قيان الملوك أيضًا يغنّين به[٣] :

إنَّ الخليطَ أَجَدّ البَينَ فادّلجُوا ... وَهُمْ كذلك فى آثارِهِمْ لُجُجُ
عَصرَ الشَّبابِ يُغنّينى مصلصلة ... جَيْداء لا صَحَلٌ فيها وَلا رَتَجُ

ونعود إلى الأعشى فنراه يشير إلى إحدى قيان حضرموت فى قصيدة يذكر فيها بعض ممدوحيه ومطارح ترحاله[٤] :

---

(١) السيرة ١ : ١٤ ؛ وتاريخ الطبرى ٢ : ٩٢٨ .
(٢) الأغانى — ساسى ٨ : ٦٥ .
(٣) الآمدى ، المؤتلف والمختلف : ١٢٧ رقم ٣٩٥ ، وكذلك المرزبانى ، معجم الشعراء ص : ٣٨٢ .
(٤) الصبح المنير ق : ٦٣ .

وَصَحِبْنا منْ آلِ جَفْنةَ أَمْلا ... كًا كرَاماً بالشَّأْمِ ذات الرّفيفِ
وبَنِي المُنْذِرِ الأَشاهب بالحيـ ... ـرَة يَمْشُون غُدْوَةً كالسّيُوفِ
وَجُلُنْداءَ فى عُمَانَ مُقيماً ... ثمّ قيْساً فى حضرموت المُنيفِ
قاعِدًا حَوْلَهُ النَّدامَى فمَا يَنْـ ... ـفكُّ يُؤْتَى بمُوكَرٍ مَجْدُوفِ
وَصَدُوحٍ إذا يُهَيِّجُها الشَّرْ ... بُ ترَقَّتْ فى مِزْهَرٍ مَنْدُوفِ

وكان الأعشى يزور أساقفة نجران ويمدحهم ، ويمدح العاقب والسيد وهما ملكا نجران ، ويقيم عندهما ما شاء ، يسقونه الخمر ويسمعونه الغناء الرومى . فإذا انصرف أجزلوا صلته[1] . وهو القائل فى قصيدة يمدح بها رهط قيس بن معدى كرب ويزيد بن عبد المدان بن الديّان[2] :

وَشاهدُنا الوَرْدُ وَالياَسَمي ... نُ وَالمُسْمِعاتُ بقُصّابها
وَمِزمِرُنا مُعْمَلٌ دَائمٌ ... فأَىّ الثَّلاثةِ أَزْرَى بها
ترَى الصَّنجَ يَبْكى لهُ شجوه ... مخافَةَ أَنْ سَوْفَ يُدْعَى بها

ويمدح فى قصيدة أخرى بنى الحارث وهم رهط يزيد بن عبد المدان ، فيقول يصف ناقته[3] :

قاصِدٌ وَجْهُهَا تزُورُ بَنى الحا ... رِث أَهْلَ الغناءِ عندَ الشُّرُوبِ

وهذه الأبيات جميعها صريحة الدلالة على انتشار الغناء والقيان فى هذه البلاد ، فى هذه الفترة التى ندرسها . بل لقد بلغ من كثرة هؤلاء القيان أنّهن كنّ يوهبن . قال الأعشى يمدح مسروق بن وائل — وهو حضرمى كان يسكن بعانة[4] ،

---

(١) الأغانى — ساسى ٦ : ٦٩ — ٧٠ .
(٢) الصبح المنير ق : ٢٢ .
(٣) المصدر السابق ص : ٢١٩ .
(٤) المصدر السابق ق : ٧٠ .

وهو أحد أمراء اليمن وأشرافهم :

الوَاهبُ القينـــاتِ كالـ غِزْلانِ فى عَقِدِ الخَمَائلْ

وقال يمدح قيس بن معدى كرب الكنْدى[١] :

هُوَ الوَاهبُ المُسْمِعَاتِ الشُّرُو بَ بَينَ الحَرِيرِ وبَينَ الكَتَنْ

وهو القائل أيضًا[٢] :

هُوَ الوَاهبُ الكُومَ الصَّفَايَا لجَارِهِ يُشَبَّهْنَ دَوْماً أَوْ نَخيلاً مُكَمَّمَا

وَكُلَّ ذَمُولٍ كَالغَمَنيقِ وَقينَةٍ تَجُرّ إلى الحانُوتِ بُرْدًا مُسَهَّمَا

ونجد اليمن وحضرموت — حتى فى صدر الإسلام — تزخران بهؤلاء القيان . فقد وقع إلى المهاجر — وهو قائد أبى بكر فى حروب الردّة وعامله على اليمن — امرأتان مغنيتان ، غنَّت إحداهما وزمرت بشمّ رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فقطع يدها ونزع ثنيتها ، وكذلك فعل بالثانية التى غنَّت بهجاء المسلمين[٣] .

ولمَّا انتقل رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، إلى جوار ربّه كان باليمن نسوة يتمنَّيْن موته ، عليه السلام ، فخضبن أيديهن بالحنَّاء ، وضربن بالدفوف ، وتأشَّب إليهن قيانٌ وعواهر لحضرموت[٤] .

البادية والقبائل :

وكان لخيمة العربى فى البادية حظّها من القيان كذلك . فقد كان مالك وعقيل ابنا فارج من قضاعة متوجّهين إلى جذيمة ، فلمَّا كانا ببعض الطريق

---

(١) الصبح المنير ص : ١٩ .

(٢) المصدر السابق ق : ٥٥ .

(٣) تاريخ الطبرى ٤ : ٢٠١٤ وسأذكر خبرهما مفصلا فى الفصل الثانى عند الحديث عن الشجاء الحضرمية .

(٤) محمد بن حبيب النسابة ، المحبر : ١٨٤ — ١٨٨ ، وسنذكره مفصلا أيضاً فى الفصل الثانى .

نزلا منزلاً ومعهما قينة لهما يقال أم عمرو[١] تغنّيهما وتسقيهما[٢].

وهذا عبد يَغُوث بن وقّاص الحارثى — سيد قومه وقائدهم فى يوم الكُلاب الثانى إلى بنى تميم ، وفى ذلك اليوم أُسرَ وقُتل — يقول من قصيدته الشهيرة[٣] :

أَلا لا تَلُومَانى كَفَى اللَّوْم مَا بيَا فَمَا لَكُمَا فى اللَّوْم نَفْعٌ وَلا ليَا

حتى يقول :

فَيَا رَاكباً إمّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ نَدَامَاىَ منْ نَجْرانَ أَنْ لا تَلاقيَا

ثمّ يقول :

وقَد كُنْتُ نَحّارَ الجَزُورِ وَمُعْمِلَ المَطىّ وَأَمْضِى حَيثُ لا حَىّ مَاضيَا

وَأَنْحَرُ للشَّرْبِ الكرَامِ مَطيّتى وَأَصْدَعُ بَين القَيْنَيَينِ رِدَائيَا

ويقول تأبّط شرًّا :

وَلَسْتُ بَعيدًا عَنْ مُدَامٍ وَقينَةٍ وَلا بصَفَا صَلدٍ عَنِ الخَير معزلِ

وَلَكنَّنى أَرْوِى منَ الخَمْرِ هَامَتى وَأَنْضُو المَلا بالشَّاحب المُتَشَلشلِ

ويقول طرفة بن العبد البكرى[٤] :

نَدَامَاىَ بيضٌ كَالنّجومِ وَقينَةٌ تَرُوحُ عَلَيْنَا بَينَ بُرْدٍ وَمُجْسَدِ

ويقول عبد المسيح بن عَسْلَة[٥] — وهو من بنى شيبان من بكر بن وائل وكانوا يقطنون أرض الجزيرة إلى الغرب من العراق — وهو فى هذه الأبيات

---

(١) تاريخ الطبرى ٢ : ٧٥٤ — ٧٥٦ .

(٢) شرح مقامات الحريرى للشريشى ٢ : ٤ .

(٣) الأغانى — ساسى ١٥ : ٧٢ .

(٤) شرح ديوان طرفة للأعلم — ط . شالون ١٩٠٠ ، ص : ٢٥ — ٢٧ .

(٥) شرح المفضليات — ليل : LXXII

يصف لنا مجلس شراب وقد أخذت حُمَيَّا الكأس برجل اسمه كعب من قبيلة النمر بن قاسط — وكانوا يقطنون أيضًا أرض الجزيرة — فدفعته إلى أن يأتى منكراً استهجنه الشاعر فقال :

يَا كَعْبُ إِنَّكَ لَوْ قَصَرْتَ على ... حُسْنِ النِّدَامِ وقلَّةِ الجُرْمِ
وَسَمَاعِ مُدْجِنَةٍ تُعَلِّلُنَا ... حَتَى نَؤوبَ تَناوُمَ العُجْمِ
لَصَحَوْتَ وَالنَّمَرِىّ يَحْسِبُهَا ... عَمَّ السِّمَاكِ وَخَالَةَ النَّجْمِ
هَلْهِلْ لكَعْبٍ بَعْدَمَا وَقَعَتْ ... فَوْقَ الجَبِينِ بِمِعْصَمٍ فَغْمِ
جَسَدٌ به نَضْحُ الدِّمَاءِ كَمَا ... قَنَأَتْ أَنَامِل قَاطِفِ الكَرْمِ
والخَمْرُ لَيْسَتْ منْ أَخيكَ وَلَا ... كنْ قَدْ تَخُونُ بِآمِنِ الحلْمِ

وينسب الآمدى[1] هذه الأبيات إلى ابن عسلة : حرملة بن حكيم الشيبانى ، ويظنّ أنّه أخو عبد المسيح بن عسلة السابق ، فيقول : كان الحارث بن جبلة الغسانى وَهَب له (لحرملة) قينتين لأن المنذر بن ماء السماء كان أمره أن يهجو الحارث فأبَى عليه ، فجلس حرملة فى النمر بن قاسط يشرب ومعه قينتاه ورجل من النمر بن قاسط . فأخذ الشراب من النمرى فجعل يعرض للقينة وحرملة ينهاه ، فلمَّا أكثر ضربه حرملة بالسيف فقطع يده أو أثَّر فى بعض أعضائه ، وكان اسم الرجل كعبًا — وقال حرملة :

يا كَعبُ إِنَّكَ لَوْ قَصَرْتَ عَلى ... حُسْنِ المَدَاحِ وَقلَّةِ الغُرْمِ
وَغِنَاء مُسْمِعَةٍ تُعَلِّلُنَـا ... حَتَى تَؤوبَ تَنَاوُمَ العُجْمِ
لَوَجَدْتَ فينَا مَا تَحَوَّلَ منْ ... صَافى الشَّرَابِ وَلَذَّةِ الطَّعْمِ

ويقول مُزَرِّد بن ضرار (مخضرم ، أخو الشماخ) :

تَرَكْتُ ابنَ ثَوْب وَهوَ لا سترَ دونَهُ ... وَلَوْ شئْتُ غَنَّتْنى بثَوْب وَلائدى

---

(١) المؤتلف والمختلف : ١٥٧ ، رقم : ٥١٧ .

وقال لقيط بن زرارة – زعيم الرِّباب يوم شِعْب جَبَلَة – مرتجزاً فى ذلك اليوم[١] :

عَرَفْتُكُمْ وَالدّمعُ بالعَينِ يَكِفْ لفَارِسٍ أَتْلَفْتُمُوهُ ما خُلِفْ
إنَّ النّشيل والشّواءَ والرُّغُفْ والقينةَ الحسناءَ والكأْسَ الأُنُفْ
وصفوةَ القِدْرِ وتعجيلَ اللَّقَفْ للطاعنين الخيلَ والخَيلُ قُطُفْ

وفى هذا اليوم نفسه – يوم شِعْب جَبَلَة – قال المعقر بن أوس بن حمار البارقى[٢] :

فَباتُوا لَنَا ضَيْفاً وبِتْنَا بنَعْمةٍ لَنَا مُسمعاتٌ بالدّفُوفِ وسامرُ

وقد ذكر أبو الفرج إحدى قيان حذيفة بن بدر قال[٣] : « دخل قيس بن زهير على بعض الملوك وعنده قينة لحذيفة بن بدر تغنيه بقول امرئ القيس :

دارٌ لهنْدٍ والرّبابِ وفَرْتَنَى ولميسَ قَبْلَ حوادِثِ الأَيّامِ

– وهنّ فيما يُذكر نسوةٌ من بنى عبس – فغضب قيس بن زُهير وشقّ رداءها وشتمها ، فغضب حذيفة ، فبلغ ذلك قيسًا ، فأتاه يسترضيه .

وكان أبو بَرَاء عامر بن مالك « قد بعث إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن يُنْفذ إليهم قومًا يفقهونهم ويعرضون عليهم الإسلام وشرائعه ، فبعث إليهم قومًا من أصحابه . . . فقتلهم عامر بن الطفيل يوم بئر مَعُونة . . . وبلغ بنى عامر موت عامر بن الطفيل وهو منصرف من عند رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، فأرادوا النُّجْعة من مكانهم ، فجعلوا يرتحلون . فقال عامر ابن مالك : ما يصنع القوم ؟ فقيل : يرتحلون لهذا الأمر الذى حدث فى الناس

---

(١) الأغانى – ساسى ١٠ : ٣٧ .
(٢) المصدر السابق ١٠ : ٤٤ .
(٣) المصدر السابق ١٦ : ٢٤ .

فقال : أبغير أمرى ؟ فقال بعض بنى أخيه : إنَّهم يزعمون أنَّه قد حدث لك عارض فى عقلك لإرسالك إلى هذا الرجل . فدعا لَبيداً ودعا قينتين له . فشرب وغنتاه . فقال : يا لبيد أرأيت إن حدث بعمّك حَدَثٌ ما أنت قائل ؟ فإن قومك يزعمون أن عقلى قد ذهب ، والموت خير من عُزوب العقل . فقال لبيد :

قُوما تَجُوبانِ مع الأَنْواحِ فى مـأْتَمٍ مُهجَّرِ الرَّواحِ

فلمَّا أثقله الشراب اتكأ على سيفه حتى مات... » [1]

وفى غناء نساء العرب وعزفهن يروى لنا[2] ابنُ رشيق أن القبيلة من العرب كانت إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن فى الأعراس .

---

(١) المحبر : ٤٧٢ – ٤٧٣ .

(٢) العمدة ١ : ٤٩ .

طبقات القيان

وبعد ، فإنى — فيما يبدو لى — قد أكثرت من النصوص ، وعذيرى فى ذلك أنّها نصوص حافلة جامعة واضحة الدلالة بيّنة الإشارة أغنتنى عن التعقيب والشرح . ولعلّنا نلمح من خلال هذه النصوص أن القيان عند عرب الجاهلية كنّ طبقتين رئيسيتين :

أولاهما : قيان يختصصن بمالك واحد كقيان ملوك المناذرة والغساسنة وأشراف العرب وساداتهم ، وإنّما يقتصرن على القصور والبيوت يلهين ساداتهن فى مجالس أنسهم ويُطربْنَهم إذا خلوا إلى أهليهم وذويهم .

وثانيتهما : قيان الحانات والمواخير حيث كانت كؤوس الشراب وغناء القيان تُضْرِم فى رُوّاد الحانات سُعَارَ الجسد ، وتثير فيهم عُرامًا متلظّياً يؤجّج وَقْدَتَه ما كان يصطنعه أولئك القيان من أزياء فى اللباس تكشف عن مفاتن الجسد ، ومن حركات وإشارات مغوية مغرية .

أمّا قيان الطبقة الأولى فقد مرّ معنا منهن : قيان النعمان ، وجبلة بن الأيهم ، وأحيحة بن الجُلاح وقينته مليكة ، وعمرو بن الإطنابة الخزرجى ، وصالح بن عِلاط ، وعبد الله بن جُدْعان وجرادتاه ، وابن خَطَل وقينتاه ، ومِقيس بن عبد قيس وقينتاه أسماء وعثمة ، وبشر بن عمرو بن مَرْثد وقيانه هُريرة وخُليدة وقُتيلة ، وقيان امرئ القيس ، وأساقفة نجران ، ومالك وعقيل وقينتهما أمّ عمرو ، وابن عَسَلة الشيبانى ، وحُذَيفة بن بدر ، وعامر بن مالك . وسنذكر أخبار القيان المسميات منهن فى الفصل الثانى .

* * *

وأمّا الحانات فيبدو أنّها كانت مبثوثة فى الجزيرة العربيّة : وسطها وأطرافها ،

قراها وبواديها . وكانت تنصب على باب الحانة راية تدلّ عليها كما كانت تنصب على أبواب البغايا . قال لبيد :

بلْ أَنْتِ لا تَدْرِينَ كَمْ من لَيْلَةٍ طَلْقٍ لَذيذٍ لَهْوُها وندامُهَا
قَدْ بتُّ سامرَها وغَايةِ تَاجرٍ وافَيْتُ إِذْ رُفعتْ وعزَّ مُدامُهَا

وقال أبو ذؤيب[1] :

فَما الراح راح الشام جاءَتْ سبيّةً لهَا غَايةٌ تَهْدِى الكرامَ عُقابُهَا

والغاية والعُقاب : الراية . قال الأصمعى : كان التاجر إذا جاء بالخمر يبيعها نصب راية ليعلم الحى أنّه جاء بخمر .

ويبدو أن هؤلاء الخمّارين كانوا خليطًا من أقوام مختلفة ، قال الأعشى فى خمّار يهودى :

وصهْباءَ طَاف يهُوديّهَا وأَبْرزَها وعلَيْهَا خَتَمْ
وقَابلَهَا الرّيحُ فى دَنِّهَا وصلَّى على دَنِّهَا وارْتَسمْ

وقال فى خمّار علج أزرق :

تَنَخَّلَهَا منْ بكَارِ القطَافِ أُزَيْرِقُ آمِنُ إِكْسادِها

وقال ساعدة بن جُؤيّة فى خمّار أعجمى :

ومِزَاجُهَا صهْباءُ فَتَّ ختامَهَا فَرِطٌ من الخُرْسِ القِطاطِ مُثَقَّبُ

والخرس : العجم الذين لا يفقهون الكلام .

ويبدو كذلك أن العرب قد شاركوا هؤلاء الأقوام فى هذا الضرب من التجارة ، فقد كان عقبة بن أبى معيط خمّاراً[2] ، وكان لابن جدعان دار للبغاء والشراب

---

(١) ديوان الهذليين – ط . دار الكتب – القسم الأول ص : ٧٢ .
(٢) الخوارزمى ، مفيد العلوم ومبيد الهموم : ٢٧٩ .

والسماع[١] وكان للأعشى كذلك معصر للخمر فى أثافت[٢]. وكان الفتيان يؤمون منزله بمنفوحة اليمامة للشرب[٣].

وأمّا ساقى الخمر فهو فتى نشيط مُفَدَّم مُقَرّط . وصفه ساعدة فى بيته المتقدم بأنّه « قَرِطٌ من الخُرْس القطاط مُثَقَّب » ، وذكره الأعشى فقال :

يسعى بهَا ذو زُجاجاتٍ لَهُ نُطَفٌ مُقَلِّصٌ أسفَلَ السرْبالِ مُعْتَمِلُ

وقال :

ونَظَلّ تَجْرِى بيْنَنَا ومُفَدَّمٌ يَسْقِى بهَا
هزِجٌ علَيْه التَّوْمتَا نِ إذا نَشَاء عدَا بهَا

وأمّا قيان الحانات فما أكثر أبيات الشعر الجاهلى الزاخرة بوصفهن المائجة بأضواء مفاتنهن . ولن نُبْعد السير حتى نلتقى بثلاثة من شعراء المعلّقات هم : طرفة ولبيد والأعشى ، وكلّهم يصف قيان الحانات هؤلاء وصفًا يجلو لنا لونًا من الحياة الجاهليّة ما أخلقه بحاناتنا وصالات الرقص والشراب فى زماننا هذا ، ويشفّ لنا عن وضوح ما أحسبنا نطمع بأكثر منه . قال طرفة[٤] :

نَداماىَ بيضٌ كَالنّجُومِ وقَيْنَةٌ تَرُوحُ علَيْنَا بين بُرْدٍ ومُجْسَدِ
رحيبٌ قِطَابُ الجيْبِ منهَا رفيقَةٌ بجَسّ النَّدامَى بضَّةُ المُتَجَرَّدِ
إذا نَحْنُ قُلْنَا :أَسمعينا .انْبرتْ لَنا على رِسْلهَا مطْرُوفَةً لمْ تَشَدَّدِ
إذا رجَّعَتْ فى صوْتهَا خِلْتَ صوْتَها تَجَاوُبَ أَظْآرٍ عَلى رُبَعٍ ردى[٥]

---

(١) الخوارزمى ، مفيد العلوم ومبيد الهموم : ٢٧٩
(٢) الهمدانى ، صفة جزيرة العرب – ليدن ص : ٦٦ .
(٣) الأغانى – دار الكتب ٩ : ١١٦ .
(٤) شرح ديوان طرفة – شالون ص : ٢٥ – ٢٧ .
(٥) البيت الرابع زيادة من الخزانة ٤ : ٢٢٩ .

وقد ذكر الأعلم الشنتمرى أنّه إنّما وصف قِطاب جيبها بالسعة لأنّها كانت توسعه ليبدو صدرها فيُنْظَر إليه ويُتَلَذّذ به . وكانت القينة تفتق فتقًا فى كمّها إلى رُفْغها فإذا أراد الرجل أن يلتمس منها شيئًا أدخل يده فلمس ، ومن هنا كان قوله : رفيقة بجسّ الندامى .

وقريب من هذا الوصف ، بل إنّه ليكاد يكون هو نفسه ، قول الأعشى [1] :

وقَدْ أَقْطَعُ اليَوْمَ الطَّوِيلَ بفتْيَةٍ مَسَاميحَ تُسْقَى والخبَاءُ مُرَوَّقُ
ورَادِعَةٌ بالمسْك صَفْرَاءُ عندنَا لجَسّ النَّدامى فى يد الدّرْعِ مَفتَقُ
إذا قلت :غَنّى الشَّرْبَ ،قامَتْ بِمِزْهَرٍ يكادُ إذا دارَتْ لَهُ الكَفّ ينطقُ
وَشَاوٍ إذا شُئْنَا كَميشٌ بِمِسْعَرٍ وَصَهْبَاءُ مزْبَادٌ إذا مَا تُصَفَّقُ
تُرِيكَ القَذى منْ دونهَا وَهىَ دونَه إذا ذاقَهَا مَنْ ذاقَهَا يَتَمَطَّقُ

ونحن نرى هنا أن هذا الفتق الذى ذكر الأعلم الشنتمرى أن القينة تفتقه فى كمّها إلى رُفْغها فإذا أراد الرجل أن يلتمس منها شيئًا أدخل يده فلمس ، نرى هذا الفتق فى أبيات الأعشى أوضح وأصرح منه فى أبيات طرفة ، وأىّ وضوح بعد قوله :

لجس الندامى فى يد الدرع مفتق ؟

ويصف لنا الأعشى جانبًا من حياة اللهو التى كان يتمرّغ فيها طلابُه ، فيذكر لنا حانة جمعت الغناء والشراب والبغاء قال [2] :

بمتَاليفَ أَهَانُوا مَالَهُمْ لغنَاءٍ وللعْبِ وَأَذَنْ
فَتَرَى إِبْرِيقَهُمْ مُسْتَرْعِفاً بشَمُولٍ صُفِّقَتْ من ماءِ شَنْ

---

(١) الصبح المنير ق : ٣٣ .
(٢) ديوان الأعشى ق : ٧٨ .

غُدْوَةً حَتى يَميلُوا أُصُلاً مثلَ ما ميلَ بأَصْحابِ الوَسَنْ
ثمّ رَاحوا مَغرِبَ الشَّمسِ إلى قُطُف المَشْيِ قَليلات الحَزَنْ

ويبدو أن هذه الحانات كانت تجمع أفانين من اللهو واللذّات . فقد كانت القيان الأجنبيات يرقصن فى بعضها ، قال الأعشى يصف إماء تركيات وكابليات[1] :

ولَقَدْ شَرِبْتُ الخَمْرَ تَرْ كُضُ حَوْلَنَا تُرْكٌ وكابلْ

والأعشى هو القائل فى قينة الحانة أيضًا :

وَقَدْ غَدَوْتُ إلى الحَانُوت يَتبَعُنى شَاوٍ مشلٌّ شَلُولٌ شُلْشُلٌ شَوِلُ
فى فتْيَةٍ كَسُيوف الهند قد علموا ، أنْ لَيس يَدفعُ عن ذى الحيلة الحِيَلُ
نَازَعتُهمْ قُضُبَ الرّيحَانِ مُتَّكئاً وَقَهْوَةً مُزَّةً رَاوُوقُهَا خَضِلُ

إلى أن يقول :

ومُسْتَجيبٍ تَخَالُ الصَّنْجَ يَسمَعُهُ إذا تُرجّعُ فيه القَيْنَةُ الفُضُلُ

ولم يضنّ علينا لبيد فى معلقته بذكر لقينة الحانة قال :

بَلْ أَنْتِ لا تَدْرِينَ كَم من لَيلةٍ طَلْقٍ لَذيذٍ لَهْوُهَا وَنَدَامُهَا
قَد بتُّ سَامِرَهَا وَغَايَةِ تَاجرٍ وَافَيْتُ إذْ رُفعَتْ وَعَزَّ مُدامُهَا
أُغْلى السِّبَاءَ بكلّ أَدْكَنَ عاتقٍ أَوْ جَوْنةٍ قُدِحتْ وفُضَّ ختامُهَا
بصَبوحِ صافيةٍ وَجَذبِ كَرِينَةٍ بِمُوَتَّرٍ تَأْتَالُهُ إبْهَامُهَا

ونجد امرأ القيس يذكر فى أحد أبياته إحدى هؤلاء القيان فيقول :

---

(١) ديوان الأعشى ق : ٧٦ بيت : ٥ .

أشيم مصَاب المزن أينَ مصَابه وَلا شيءَ يشفى منكَ يا ابنة عمزرا

وابنة عفزر مغنية مشهورة كانت فى الحيرة وكان وفد النعمان إذا أتوه لهوا بها[١]، وسنفصل خبرها فى الفصل الثانى .

وفى قصيدة لعَبْدَة بن الطبيب وصف مفصل لمجلس شراب فى إحدى هذه الحانات تغنيهم فيه إحدى القيان ، قال عَبْدَة[٢] :

وَقد غَدوْتُ وقَرْنُ الشمسِ مُنْفَتِقٌ وَدُونَهُ منْ سَوَاد اللَّيْلِ تَجليلُ

إلى التِّجَارِ فَأَعْدَانى بلَذَّته رِخوُ الإِزَارِ كصَدرِ السيف مشمولُ

وبعد أن يصف مناظر الحانة ونقوشها وصورها وخمرها يقول :

صِرْفاً مِزَاجاً وَأَحْيَاناً يُعَلِّلُنَا شِعْرٌ كمُذْهَبَة السمّانِ مَحْمُولُ

تُذْرى حَوَاشيَهُ جَيْدَاءُ آنسةٌ فى صَوْتهَا لسمَاع الشَّرْبِ ترْتيلُ

تَغْدُو عَلَينَا تُلَهِّينَا وَنُصْفدُها تُلْقَى البُرُودُ عَلَيْهَا وَالسَّرَابيلُ

وقد وصف لنا تميم بن أُبَىّ بن مُقْبل قينة الحانة وهى تغنى وترقص وتعزف بالعود معًا فى آن ، قال[٣] :

صَدَحَتْ لَنا جَيْداءُ يَرْكضُ ساقها عنْدَ التِّجَارِ مَجَامعَ الخَلْخَالِ

فُضُلاً يُنَازِعُهَا المَحَابضُ رجعَها بأَحَذَّ لا صَحْلٍ وَلا مصْحَالِ

---

(١) تاج العروس (عفزر) .

(٢) شرح المفضليات للأنبارى XXVI ويرجح Lyall أن عبدة نظم هذه القصيدة فى الإسلام بعد وقعة القادسية (١٥ هـ ٦٣٧ م) .

(٣) المفضل بن سلمة ، كتاب العود والملاهى وأسمائها ، مخطوط فى دار الكتب المصرية (رقم ٥٣٣ فنون جميلة) ورقة : ٢٧ . وشرح المفضل ألفاظ البيتين فقال : « تركض : تدفع . التجار : الخمارون ها هنا . مجامع الخلخال : موضع مجامع الخلخال يعنى ذيلها . فضلا : أى فى ثوب بذلة . المحابض : أوتار العود . الأحذ : الخفيف يعنى عوداً . الصحل والمصحال : الذى ليس بصافى الصوت » .

* * *

وعندى أنّ هذه الأبيات جميعًا – أبيات طرفة والأعشى ولبيد وعَبْدة وابن مُقْبل – صريحة الدلالة على قيام طبقة خاصة من القيان كانت لهنّ بيوت عامة يجتمع فيها الناس للسماع ، أو أنّهن كنّ مغنيات مأجورات تصطنعهن الحانات ودور الشراب يغوين الرجال ويتألفن الروّاد بما يعرضن من فتنة الجسد وفتنة الصوت .